البلاغة العربية فى نظر العقاد

دراسة وموازنة

د / بغدادى إبراهيم الصحابى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

مقدمة

الحمد لله الذى حفظ للعربية أصولها وتراثها ، وسخر العقول الناضجة المستنيرة للذود عنها ، والتصدى بكل عزم وحزم لكل من يريد هدم التراث بأصوله وقواعده والنيل من لغة القرآن وما اكتنفه ونشأ بسببه من علوم وقواعد ومعارف ، ولكن أنى لهم ذلك والذى أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - تكفل بحفظه فقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر ٩ ، والعلوم التى نشأت بسببه محفوظة بحفظه باقية ببقائه .

ومن هؤلاء الذين لديهم الغيرة الشديدة على لغة القرآن وعلومها وما اشتملت عليه من قواعد ، الأستاذ / عباس العقاد الذى كان موسوعى المعرفة وكان متبحرًا فى كل العلوم .

وقفت عزمات النوابغ بهم عند حد الجزئية فى المعرفة ، وقصرتهم على فرع من فروعها ، لكنه استطال عليهم بالموسوعية فيها ، وضرب بسهم وافر فى شتى صنوفها ، حتى بلغ الإمامة فى كل منها [١] . وبلغ حصاده الأدبى فى حياته الزاخرة اثنين وثمانين كتابًا فى شتى صنوف المعرفة ، عدا عشرة دواوين من الشعر ، وآلاف من المقالات فى الصحف والمجلات [٢] .

وقال عنه الأستاذ / جلال العشرى : أصبح العقاد - كما كان الغزالى - من أصحاب الفضل على الإنسانية بوجه عام ، والعربية بوجه خاص ، والإسلامية بوجه أخص . وقال الأستاذ عزيز أباظة : إذا كان الله قد جاد للبلدان العربية بالنيل وبردى والفرات ... فقد حبا الضاد بالعقاد . وقال الأستاذ أنيس منصور : العقاد دائرة معارف حية فى أدبنا الحديث [٣] .

---

(١) العقاد كما عرفته ص ٥ - تأليف / حسن على الريس - دار الإنسان - القاهرة ١٩٧٥ م .

(٢) العقاد كما عرفته ص ٧ .

(٣) العقاد كما عرفته ص ٩ ، بتصرف .

وهذه الشهرة الواسعة وهذا الاعتراف من أئمة اللغة والأدب فى عصره بتبوغه وسعة علمه واطلاعه الواسع وتبحره فى معظم العلوم ، اتخذه طائفة من دعاة التجديد والحداثة - دون ما تجديد أو حداثة - معولا لهدم التراث ، وسلمًا للوصول إلى أهدافهم وأغراضهم ، لذلك فكرت فى الكتابة فى هذا الموضوع لدحض شبههم ، وكشف زيفهم ، وبيان أغلاطهم ، وإثبات براءة العقاد مما نسب إليه ، مثل براءة الذئب من دم يوسف ، بنصوص موثقة من كتاباته حتى لا يكون هناك مجال للرد أو الإنكار .

ولو أن أهل الحداثة حزوا حزو العقاد وسلكوا سبيله فى حبه وولائه ودفاعه عن التراث لكفوا الدارسين من المشتغلين بالدفاع عن بلاغة القرآن مؤنة التفكير فى الكتابة فى مثل هذه الموضوعات .

والذى حدا بهؤلاء أن يذهبوا إلى ما ذهبوا إليه عدة أمور ، منها : الولع والكلف الشديد بكل جديد مهما قلت أو انعدمت فوائده ، والدعوة إليه والسير فى ركابه والإخلاص له لا لشىء إلا لأنه جديد ومخالف للقديم فحسب .

ومنها : المقت والبغض لكل قديم مهما تعددت محاسنه وكثرت فوائده وعمت منافعه ، والعمل بكل جد على صد المشتغلين به من أصحاب الهمم العالية والعقول المفكرة ، وغير المشتغلين به حتى ينضموا إلى صفوفهم .

ومنها العجز الشديد عن فهم التراث وعدم الصبر وبذل الوقت والجهد فى سبيل تحصيله ، واستيعابه ، فالهدم فى قدراتهم المحدودة أهون من البناء ، والتجريح والتعييب والتنقيص أيسر من التعديل والتكميل .

ومنها : عدم الإلمام بكل ما كتبه العقاد ، أو الإلمام به مع عدم استيعابه ، أو استيعابه مع كتمان ما لا يتفق مع ما يدعون إليه ، أو سرد ما ورد عنه بالمعنى حتى يتسنى لهم الحذف والتغيير والتبديل بما يتفق ويتلاءم مع أهوائهم ورغباتهم ، أو أخذ جزئية من الموضوع مع إهمال السياق والموضوع .

ومن هنا لا يصح الحكم على كاتب إلا بعد الإلمام بما كتبه فى الأزمنة المختلفة والأمكنة المختلفة ، لأنه ربما كتب كلامًا فى زمن ثم رجع عنه فى زمن آخر بعد إمعان النظر فيما كتب ، وبدا له خطأ الأول وصحة الثانى ، فاستقر رأيه عليه ولم يرجع عنه حتى وافته المنية ، أو ربما كتب كلامًا غامضًا خفيًا فى موضع ، ثم فسره وكشف خفيه وفتح مغاليقه فى موضع آخر ، وكما قالوا الحكم على الشىء فرع تصوره .

والعناوين التى ستوجد فى هذا الكتاب هى نفس العناوين التى عنون بها أرباب هذا الفن من سلفنا ، وقصدت ألا أحيد عنها ، حتى يعلم أن العقاد استخدم هذه المصطلحات وحافظ عليها كما جاءت فى تصانيف أهل هذا التخصص .

ولا ينتظر القارئ الكريم من هذه العناوين تحديدًا أو تقسيمًا أو تفريعًا كما هو وارد فى المصنفات التى اتسمت بهذه السمة ، وإنما الغرض منها إظهار وتوضيح رأى العقاد عن المصطلح ، وأحيانًا بيان صلته بما قاله أهل التراث ، إن تطلب المقام ذلك .

ومن المعلوم أن التطوير والتحديث والتجديد هو سنة الله فى خلقه ، ليس فى علوم العربية فحسب وإنما فى كل شىء ، وأهل التراث أنفسهم لم يحجروا على أحد ممن جاء بعدهم وأقروا واعترفوا أن ما دونوه هو يمثل عصورهم .

قال ابن قتيبة : ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص قومًا دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثًا فى عصره [1] .

وجل أهل التراث قالوا مثل هذا المعنى .

وليس معنى هذا أن الساحة قد خلت من المنافحين عن التراث والمبرزين لمكانته وتفوقه ، فواحد منهم يتابع مسيرته بالدفاع عن الشعر القديم وما فيه من قيم ، والتى

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٣ - تحقيق / أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م .

منها : جمال الصياغة ، وعذوبة النغم ، وروعة التصوير ، وأن الكلام إذا خلا من هذه القيم فهو كلام عابر يشبه التعبير الصحفى [1] .

فالتراث باق لا يعطل ولا يهمل ، ولا يضعف والإضافة إليه مطلوبة وواجبة ، ولا حجر على عقل أو فكر مجدد مبتكر مادام ابتكاره من الأهمية بمكان ، وليسا المجددون من حيث انتهى التراثيون ، فالأمة التى لا أصل لها ولا تراث لها هى أمة ضعيفة واهية ، وأضعف منها الأمة التى لها تراث ثم تفرط فيه ، أو تهدمه ، أو تكون عونًا لأعدائه .

والله أسأل أن يلهمنى الصواب ويجنبنى الزلل ويكتب لى التوفيق والسداد والرشاد فهو ولى ذلك والقادر عليه .

(١) انظر : التجديد والحداثة بمعيار بياق - جميل علوش ص ٤٦ .

البلاغة

لا ريب أن البلاغة العربية التى وصلت إلينا من كتب التراث لها أكبر الأثر فى الخلق والإبداع وتنمية الذوق لدى المبدع والمتلقى الناقد على حد سواء ، ولا ريب كذلك أنها مستنبطة من كلام العرب الخلص ، وخاصة القرآن الكريم الذى نزل بلغتهم مع العلم التام بطبائعهم وعاداتهم وتقاليدهم ومراعاة بيئتهم وأحوالهم وغير ذلك ، وكذلك السنة النبوية المطهرة ، والشعر العربى الفصيح .

ولله الفضل والمنة أن قواعد البلاغة باقية وحية وثرية ومعطاءة ، لا ينضب معينها ولا تقل فوائدها ولا يستغنى عنها فيما مضى من الزمان ولا ما هو آت ، وهى تدرس فى كل مراحل التعليم بدقة وتعمق ، وفى المراحل العليا المتخصصة ، يضاف إلى الدقة والتعمق الحرية والحياد والمناقشة الهادفة والقبول مع التهليل والدليل ، أو الرفض كذلك .

والعقاد واحد من أبرز الذين سخروا أقلامهم للذود عنها مع الإشادة بعلمائها ، وبما كتبوه فيها ، وحتى لا تكون عباراته عامة أو تحمل على غير وجهها كان العقاد عند الدفاع أو الإشادة يصرح بعلم البيان والمعانى والبديع .

يقول العقاد : " فلابد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة " [1] .

أليس هذا اعتراف صريح وواضح من العقاد بعلوم البلاغة الثلاث وعدم إلغائها أو الانصراف عنها ، والحث على دراستها ومطالعتها والسعى فى طلبها ؟ .

وأعجب كل العجب ومن حقك أن تشاركنى هذا العجب مما نسب إلى العقاد من كونه قد انصرف عن البلاغة العربية ، اقرأ معى " لماذا انصرف العقاد عن

(١) يوميات العقاد - عباس محمود العقاد ٢ / ٣٦٢ - دار المعارف بمصر طبعة ثانية ١٩٦٩ م .

البلاغة ؟ انصرف العقاد عنها لأنها لا تحقق المطالب الحيوية التى كان يدعو إليها ، ولأنها لا تحقق تصور الأدب الذى كان يدعو إليه " [١] .

وعندما تقارن بين هذا الكلام الذى نسب إلى العقاد وبين القول الصريح الذى نقلته عنه ووثقته ، تعلم براءة العقاد مما نسب إليه ، وتعلم عدم صحة السؤال " لماذا انصرف العقاد عن البلاغة " فكيف ينصرف وهو يدعو إلى عدم الانصراف ، وهل لكاتب كبير مثل العقاد أن يقع فى هذا التناقض ؟ الذى لا وجود له على الإطلاق ، ثم أين المرجع وأين العبارة الموثقة التى نستشف منها أن الرجل قد انصرف أو دعا إلى الانصراف .

وبعدما دعا العقاد إلى عدم الانصراف عن البلاغة يشفع هذه الدعوة بالدليل أو السبب فيقول : " لأنها – أى البلاغة – هى خلاصة الملاحظات التى أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واهتدوا بها على مواضع البلاغة فيما عدوه من كلام الشعراء والكتاب " [٢] .

هذه الكلمات تسجل بمداد من ذهب ، وهى أوسمة توضع على صدور علمائنا من أعلام هذا الفن ، فهو ينعتهم بأنهم أصحاب فهم وذوق ، ووعى ، واهتداء على الحق والصواب .

وينعتهم بأنهم أدركوا فوائدها ، ومآخذها ، وليس هذا الإدراك من باب الانفعال أو المفاخرة أو السطحية ، بل هو على سبيل التحقيق ، يقول العقاد : " ولقد وضعها الأقدمون ، وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها

(١) اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ص ٥٣ . د / مصطفى ناصف ، دار سعاد الصباح الكويت طبعة أولى ١٩٩٢ م .

(٢) يوميات ٢ / ٣٦٢ .

ومآخذها ، بل أدركوا منها – على التحقيق – فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلونها معانى ومفهومات " [١] .

ويسوق العقاد دليلاً آخر يبرهن به على أن الأقدمين يتسمون بالتحرر فى أفكارهم ، وينصحون أبناءهم بالتحرر فى الإبداع ، يقول العقاد : " أليس أولئك البلغاء الأقدمون هم الذين كانوا ينصحون تلاميذهم قائلين : احفظوا جيد الشعر وانسوه ؟

بلى .. تلك كانت نصيحتهم ، وتلك هى غايتهم من تسجيل ملاحظاتهم ، وهى أن تعرف حتى تصبح فى الذهن عادة من عادات البداهة بغير قصد ولا محاولة كما يعرف الإنسان سبب العمل الذى تعوده وهو يفكر فى غايته ، ثم يعمله بعد ذلك وليست الغاية حاضرة فى ذهنه " [٢] .

وفى أكثر من موضع يشيد العقاد بعلوم البلاغة الثلاثة ويذكرها بأسمائها ويحكم عليها بالصحة وينفى عنها العيب ، ويؤكد كثيرًا ومرارًا وتكرارًا بأن العيب يكمن فى إساءة استعمالها ، يقول العقاد : " فالعلوم التى عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فإنما يؤخذ على إساءة استعمالها ، ولا يؤخذ على استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها واضعوها " [٣] .

وانظر معى بتأمل شديد إلى ما قاله العقاد هنا ، وإلى ما نسب إليه من كونه قد أنكر البلاغة : " كانت أبحاث اللغة فى شكل بلاغة تخدم أحيانًا على الأقل عواطف الطبقة الخاصة ، أو عواطف البطالة والفراغ . يجب إذن أن نتساءل لماذا أنكر العقاد البلاغة ؟ لماذا أنكر غير قليل من وجوه تقصى اللغة " [٤] .

(١) يوميات ٢ / ٣٦٢ .

(٢) يوميات ٢ / ٣٦٢ .

(٣) يوميات ٢ / ٣٦٢ .

(٤) اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ص ٥٤ . د / مصطفى ناصف – دار سعاد الصباح – الكويت ١٩٧٧ .

أين إنكار العقاد للبلاغة ؟ وكيف أنكرها ؟ هل أنكر علومها ؟ هل أنكر قواعدها ؟ هل أنكر تطبيقها على المنظوم والمنثور من كلام العرب ، والحق أنه لم ينكر شيئًا من ذلك ، وإنما أنكر إساءة استعمالها ، وأنكر التكلف والتصنع وإجهاد النفس فى استعمالها .

والعقاد يفسر سوء الاستعمال فيقول : " وسوء استعمالها أن تصبح قيودًا لا فكاك منها ، ونماذج للمحاكاة (الآلية) بغير فهم لها ، ولا تصرف فى مدلولها ، وأن تكون الحلية هى المقصودة دون ما تحلية .

واستعمالها كما ينبغى أن تصبح للمتعلم والناقد توجيهات تختصر له جهود البلغاء الأولين فى سطور معدودة ، ويستعين بها على امتحان الرأى فى مواضع الخلاف والمناقشة " [1] .

ومن أجل وأروع وأفضل ما قرأت للعقاد فى إنصافه للبلاغة العربية ، وإنصافه لعلمائها ما كتبه فى يومياته حيث قال : " وكل حرف من حروف هذه القواعد هو ذخيرة باقية لا يستغنى عنها ، وإنما يأتى الخطأ ممن يتبعها بغير فهم ولا ذوق ، ولا يأتى الخطأ من قبلها " [2] .

ما أبلغ هذا الكلام وما أتمه ، ولو لم تكن للعقاد سوى هذه الكلمات ، فى إنصاف البلاغة العربية ، لكفتها شرفًا ونبلاً وعزًا وفخرًا ولكفته هو فى تبرئ ساحته ، وإثبات حبه الشديد وولاءه للبلاغة العربية وأعلامها .

فقوله " كل حرف " يدل على العموم ، وإذا كان كل حرف هو ذخيرة فما بال الكلمة والجملة والفقرة والموضوع والكتاب والكتب ، إنها لذخائر ، وإذا كان ذلك كذلك فلا يسوغ أن تستثنى قاعدة من قواعدها أو تستثنى موضوع من موضوعاتها أو علم من أعلامها .

(١) يوميات ٢ / ٣٦٣ .
(٢) يوميات ٢ / ٣٦٣ .

وقارن بين قول العقاد السابق " وكل حرف من حروف هذه القواعد هو ذخيرة باقية لا يستغنى عنها " وبين قول القائل : " ولكن كل مطلع على آراء الأستاذ العقاد يدرك بغير قليل من الجهد أنه غير راض عن الكتاب المشهور الذى ألفه عبد القاهر الجرجانى إمام البلاغة العربية ، والمعروف باسم : أسرار البلاغة " [1] .

وإذا كان هذا هو موقف العقاد من إمام البلاغة عبد القاهر الجرجانى ، فى كتابه الأسرار ، إذن ما موقفه من السكاكى فى الجزء الثالث من كتابه المفتاح ، ومن الخطيب القزوينى فى كتابه تلخيص المفتاح وكتابه الإيضاح ، وشروح التلخيص والأطول والمطول وما تلا ذلك من الحواشى والتقريرات ، وعبد القاهر هو المشهور من بين علماء البلاغة بأنه صاحب العقل المستنير والفكر المتحرر ، وإذا لم يعن العقاد بعبارته السابقة إمام البلاغة فمن يعنى .

ويقرر العقاد حقيقة لا مراء فيها وهى وصف الذين حاولوا إبطال علوم البلاغة فى العصر الحديث بالحزلقة حيث قال : " ومما ينبغى أن يقال ، والحق ينبغى أن يقال : إن الحزلقة كانت أكثر من الوعى الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع والمعانى والبيان ، فكادوا أن يبطلوا موضوعاتها ، ومحاسنها قبل أن يبطلوا حواشيها وموطن الفضول منها " [2] .

والمفهوم والمتبادر إلى الذهن من هذا الكلام أن العقاد لم يبطل علوم البلاغة الثلاثة بل حكم على أصحاب هذه المحاولة بالحزلقة وعدم الوعى الصادق وعدم الفهم الحسن ، ويفهم منه أيضًا اعتراف العقاد بموضوعات هذا الفن وبما فيه من محاسن .

والذى حدا بهؤلاء أن يذهبوا إليه هو جهلهم بأقدار الأقدمين من علماء البلاغة ، يقول العقاد : " وأول الخطأ – بل أكبر الخطأ عند هؤلاء – أنهم جهلوا

(١) اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ص ٦٢ .
(٢) يوميات ٢ / ٣٦٣ .

أقدار الأقدمين وجهلوا أقدار أنفسهم ، فوقع فى وهمهم أنهم يلغون تلك العلوم لأنهم احق من واضعيها بتعليمها ، واقدر منهم على إدراك البلاغة ، ونقدها " [١] .

وأيضًا من الأسباب حب التلمذة على يد المستشرقين والسير فى ركابهم وجهلهم بحقائق التاريخ وأسرار البلاغة ، يقول العقاد : " على أن موازين النقد الأدبى الذى اشتغل به هذا النفر من المستشرقين لا تسلم على هينة من جراء أخطائهم ، لأنهم ضللوا أناسًا من تلاميذهم فاتبعوهم فى أكثر الأخطاء التى كانوا يقعون فيها من جراء عجزهم عن النفاذ إلى حقائق التاريخ وأسرار البلاغة العربية " [٢] .

والعقاد بهذا يقف موقفًا مشرفًا فى إنصافه علوم البلاغة وإنصافه أصحاب تدوينها ، وفى إبراز الجهد العظيم الذى بذلوه فى استنباط تلك القواعد من كلام العرب بعد دراسة شاقة ومضنية .

ولكن النص الذى نقلته عن العقاد رغم ما فيه من إنصاف للبلاغة إلا أنه يفهم منه ضمنًا عدم رضاه عن الحواشى ويضمها إلى الفضول .

أبرز ما أطلق على عصر الحواشى والشروح والتقارير أنه لا فائدة ترجى منه ذلك لأنهم قرءوا هذه الحواشى من غير العودة إلى الأصول التى قامت عليها ، والذين درسوا التقارير لم ينظروا فى المادة التى اتصلت بها تلك التقارير ، ولذا فقد ظلم هذا العصر ، لقطع أجزاء الظاهرة البلاغية إلى قسمين : موضوع منفصل عن الحاشية أو الشرح ، وموضوع منفصل عن التقرير . ولو قرأ المتفنن فى الموضوع البلاغى (المتن) مع شروحه ، أو التقرير عليه أو الحاشية لوجد الفوائد التى تكمل الموضوع ، وتوضحه وتشرحه وتؤكد القضايا الأساسية فيه ، وتبرز الأصول المنبثقة منه [٣] .

(١) يوميات ٢ / ٣٦٣ .

(٢) اللغة الشاعرة ص ١٤٤ ، عباس محمود العقاد ، دار غريب للطباعة والنشر مصر ١٩٨٨ م .

(٣) البلاغة العربية فى ضوء الأسلوبية ونظرية السياق ص ٣١ . د / محمد بركات حمدى أبو على – طبعة أولى ٢٠٠٣ م – دار وائل للنشر ، الأردن .

ولكن لماذا لم يفرد العقاد مصنفًا يتحدث فيه عن اشهر ائمة هذا الفن مثل الزمخشرى وعبد القاهر ، يذكر سببين لذلك الأول أنه لم يتح له من الدراسة النفسية ما يؤهله للكتابة عن هذين العلمين ، والثانى تزاحم الواجبات وكثرتها ، ورغم ذلك لم يجزم بعدم الكتابة عنهما فى المستقبل ، بل كان منه وعد بالكتابة عنهما ، ويطلب من سائله أن يحمد له ما سيكتبه عن العالمين الجليلين ، هكذا ينعتهما بهذا النعت الذى هما أهل له وأكثر [١] .

ويصنف العقاد كتاب القصة ومن هذه الأصناف صنف " يطرح التشويق جانبًا ، ويخيل إليك أنه يتعمد الإملال أنفة أن يظن به أنه يشغل باله بتسلية القراء ويصطنع الحيلة للنزول عندهم بمنزلة الرضا والإقبال ، ولكنه يعوض التشويق بالدقة والجد فى التزام الحقائق وبلاغة التعبير " [٢] .

ولم يفضل العقاد صنفًا على صنف بل جعلها مدارس ومشارب ومناهج فلكل كاتب منهجه ونفسيته وطبعه ، وليس له اختيار فى اتباع منهج من هذه المناهج ولكن يختم العقاد كلمته بقوله : " ويظل صحيحًا على الدوام أن الإحاطة بالأساليب والمناهج المتنوعة أفضل من الجهل بها والعكوف على القليل منها " [٣] .

وأقول للعقاد هل الجد فى التزام الحقائق وبلاغة التعبير مما يتنافى مع التشويق ؟ فهناك العشرات من القصص التى جمع فيها أصحابها بين الجد فى التزام الحقائق وبلاغة التعبير وبين التشويق وملاحظة الزمان والمكان وغير ذلك ، ولم يشر العقاد إلى أن خلو المناهج من بلاغة التعبير عيب قادح ، ومن أكبر موجبات اللوم والتهجين .

ويرى العقاد أنه لابد من حضور البلاغة فى كل المواقف وفى كل الفنون ، ولابد من هيئة المشاهد ، ولابد أن يغمر فى بيئة البلاغة ، يقول العقاد : " فالحق أن

(١) انظر : يوميات ٢ / ١١٣ .

(٢) بين الكتب والناس ص ٢٠٠ ، عباس محمود العقاد – دار المعارف بمصر – الطبعة الرابعة ١٩٨٥ م .

(٣) بين الكتب والناس ص ٢٠٢ .

التجهيز ركن لا غنى عنه فى جميع الفنون وفى مقدمتها التمثيل ، ولابد لإلقاء الأثر البليغ فى نفس المشاهد من تهيئة خاصة تناسب الحياة تنسيه الحياة الدارجة وتغمره فى جو الفن والجمال وبيئة البلاغة " [١] .

وهذا يؤكد إيمان العقاد بضرورة المشاركة الفعالة للبلاغة العربية فى كل الفنون، وباللغة الفصحى يقول العقاد : " ولكننا نقول أن إنطاق العامى بالفصحى البليغة خير من إنطاق جميع الناس بلغة العامة ، وعبارات المواقف التى لا سمو فيها ولا صيانة " [٢] والفصحى البليغة هى صاحبة السمو والصيانة ، هذا هو رأيه وهذا مذهبه من خلال النصوص الصريحة فى كتاباته .

ولا ينسى العقاد البلاغة فى موطن من أهم مواطنها وهو كتابة صاحب اللغة بلغته مفهومًا ومضمونًا ، وما فى ذلك من قوة وإقناع يقول العقاد " إن المعنى الواحد يكتبه العربى ، ويكتبه الفرنسى فيبلغان ما يرومان من الإفصاح والإقناع ، ولكن إذا ادعى العربى أنه يكتب العربية بأسلوب يردها مفهومه على الفرنسية فهذا هو الغلو الذى تنزه عنه البلاغة القويمة والرأى السديد " [٣] .

والجملة البليغة عند العقاد هى التى لا تكلف فيها ولا تصنع ، ولا يشغلك ما فيها من بهرج وتحلية عن مضامينها ودلالاتها يقول العقاد " والجملة البليغة هى الجملة التى تبلغ بك إلى فحواها بلا مبالغة فى التحلية تشغلك بصياغتها عن دلالتها ، ولا قصور فى التعبير يقف بك عند ألفاظها فيثنيك عن مضامينها ، وكذلك قل فى الصورة البليغة ، والزهرة البليغة ، والوجه البليغ " [٤] ويكاد النقاد القدامى من أهل البلاغة أن يجمعوا على هذا المراد ، ففى خزانة الأدب : " حسن البيان قالوا هو عبارة عن

(١) ساعات بين الكتب – عباس محمود العقاد ص ١٤٣ – منشورات المكتبة العصرية بيروت .
(٢) ساعات بين الكتب ص ١٤٥ .
(٣) ساعات بين الكتب ص ١٢٦ .
(٤) مراجعات فى الآداب والفنون ص ٤٤ – عباس محمود العقاد – دار الكتاب العربى بيروت – طبعة أولى ١٩٦٦ م .

الإبانة عما فى النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس إذ المراد منه إخراج المعنى إلى الصورة الواضحة وإيصاله إلى فهم المخاطب بأسهل الطرق وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز وطورًا من طريق الإطناب بحسب ما يقتضيه الحال وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها " [١] وقال الخطيب : " وأما فصاحة الكلام فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها " [٢] وكلام العقاد لا يختلف عن هذا الكلام الذى قاله أرباب هذا الفن من القدماء .

هذا ما كتبه العقاد عن الجملة البليغة أما رأيه فى الشعر البليغ فليس هو الذى تفهمه النخبة المثقفة ليس بليغًا بل ربما يكون فى الذروة من البلاغة [٣] .

ووصف الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع هو وصف قديم فقد جاء فى صبح الأعشى : " ولو لم يعلموا أن السهل أمنع جانبًا وأعز مطلبًا وهو أحسن موقعًا وأعذب مستمعًا ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه قال العسكرى وهذا خطأ فى الاختيار لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف " [٤] .

وقال صاحب المثل السائر : وهذا هو الكلام الذى يسمى السهل الممتنع فتراه يطعمك ثم إذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب وهكذا ينبغى أن يكون من خاض فى كتابة أو شعر فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن ، وأما البداوة والعنجهية فى الألفاظ فتلك أمة قد خلت ومع أنها قد خلت وكانت فى زمن العرب

(١) خزانة الأدب ٢ / ٤٨٢ تقى الدين أبى بكر على بن عبد الله الحموى الأزراوى – وفاة المؤلف ٨٣٧ – دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٧ م – الطبعة الأولى – المحقق / عصام شعيتو .
(٢) الإيضاح فى علوم البلاغة ١ / ٩ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزوينى – دار إحياء العلوم بيروت ١٩٩٨ – الطبعة الرابعة .
(٣) انظر : مراجعات فى الآداب والفنون ص ٧٦ .
(٤) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ٢ / ٢٣٥ – أحمد بن على القلقشندى : ٨٢١ – دار الفكر دمشق ١٩٨٧ – الطبعة الأولى – المحقق د / يوسف على طويل .

العاربة فإنها قد عيت على مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن وقد غلب على الناس رقة الحضر [١] .

ويشير العقاد إلى هذا المعنى ، وإشارته تدل على اطلاعه الواسع وفهمه الدقيق لما قاله الأقدمون حيث يقول : " فإن نقاد العرب الأقدمين وصفوا الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع فجمعوا محاسن الكلام البليغ فى كلمتين هما من السهل الممتنع فى التعريف والإجمال وفحوى هاتين الكلمتين أن الأدب قد يكون سهلاً ولكنه ينقاد لطائفة من الأدباء ويمتنع عن طائفة أخرى وقد ينقاد لفريق من القراء ويمتنع على طوائف شتى ، وإنما المرجع فى السهولة إلى استعداد الكاتب ، واستعداد القارئ ، وليس هذا الاستعداد بالمطلب البسيط " [٢] .

ونقل هذا الكلام عن الأقدمين بنصه وعدم الاعتراض عليه أو توجيه النقد إليه بل وإبداء الإعجاب به بقوله : " جمعوا محاسن الكلام البليغ فى كلمتين " كل ذلك يرشدنا إلى تشبث العقاد وتمسكه الشديد بما سطره علماء هذا الفن من الأقدمين .

وإشارة العقاد إلى أن السهل الممتنع لا يستطيعه المبدع إلا إذا كان عنده الاستعداد الذى يؤهله لذلك ، وكذلك المتلقى تدل على تعمقه فى فهم كلام الأقدمين ، وحرصه على الإضافة إليه ، وأيضًا فى ذلك رد مقنع على الذين حاولوا اتخاذ العقاد وسيلة لهدم البلاغة العربية القديمة .

ويرد العقاد على من يجعلون البلاغة حكرًا على اللغة العربية ، وأن كل جيد منها يعزى للعرب ، وكل ركيك ضعيف يعزى إلى الإفرنج يقول العقاد : " الأسلوب الإفرنجى هو كل أسلوب معيب فى رأى فئة من النقاد يحسبون فى هذا العصر أنهم حذقوا ملكة اللغة وورثوا سليقة البلاغة العربية ، وكل أسلوب ركيك مستضعف فهو

(١) المثل السائر ١ / ١٨١ - أبى الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى ؛ ٦٣٧ - المكتبة العصرية بيروت ١٩٩٥ م - المحقق / محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) بين الكتب والناس ص ٣٩٩ .

عند هؤلاء النقاد من الأساليب الإفرنجية التى طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب ومعالجة الترجمة من لغات الإفرنج إلى لغة العرب ، وكأن الركاكة شرط أصيل يشترطه الإفرنج فى كلامهم ، ولا يقرون البلاغة عندهم إلا إذا شيبت بشىء منه ، وليس الأمر كذلك ولا مما هو يخطر على بال ناقد رشيد فإن الإفرنج يعيبون الركاكة كما نعيبها ، وينتقدون ضعف التأليف كما ننتقده ، ويعنون أشد العناية باجتناب الخطأ فى النحو والصرف ، والقواعد الأساسية المتفق عليها ، ولكن نقادنا الذين يجهلون اللغات الإفرنجية يفوتهم ذلك إذا استعرضوا الأساليب ، فما استحسنوا منها فهو للعرب خاصة ، وما استهجنوا فهو للإفرنج عامة ..... " [١] .

وأنا مع العقاد فى أن لكل قوم بلاغتهم التى يعرفونها ويألفونها ، ولا تجور بلاغة فى لغة على بلاغة فى لغة أخرى ، والقصد فى الكل هو إبلاغ المراد ، وتوصيل المشاعر والأحاسيس ، وإن الله تعالى عندما أرسل الرسل إلى أقوامهم أرسل كل رسول بلغة قومه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ " إبراهيم ٤ " . فكما أن لكل قوم لغتهم فكذلك لكل قوم بلاغتهم والحكمة من إرسال الرسول بلغة القوم معلومة ومعروفة ، وكذلك الحكمة من اختصاص كل قوم ببلاغتهم .

ومن باب الإنصاف للبلاغة غير العربية يسطر العقاد ثناءه العاطر على الكاتب والأديب همنجواى حيث قال : " وهذا عدا النجاح البالغ فى ميدانه الأصيل وهو ميدان الكتابة والأدب ، فإن نجاحه فيه كان أكبر من أن يسمى نجاحًا لكاتب واحد بين نظرائه يساوونه فى الشهرة القومية والعالمية وينالون حظًا كحظه من إعجاب القراء والنقاد ، ولكنه نجح فى ميدان الكتابة والأدب نجاح النموذج الذى يقتدى به ويطبع

(١) مراجعات فى الآداب والفنون ص ٧٧ .

الأساليب بطابعه ، فصح فى أدب جيله بين قومه أن يقال إنه أدب همنجواى ، وأله صنع للجيل لغة من البلاغة الشرية توافق طابع الزمن الصناعى الذى عاش فيه "[1].

وكذلك يسوق مثالاً وهو قطعة شعرية للشاعر توماس هاردى وقيل ذكره لما يقول " فمن المفاجأة ولاريب لجميع هؤلاء أن يقال لهم إن الكلام قد يكون فى الذروة العليا من البلاغة الشرية وليس فيه خيال شارد ولا دمعة ولا آهة ولا كلمة ملفوفة ولا معنى مستكره . بل هو يكون أبلغ فى الشاعرية كلما خلا من هذا التصنع واستوى على طريقه الواضح القويم ، ونضرب لهم مثلاً بقطعة واحدة سبق أن ترجمناها من شعر توماس هاردى وبعدما كتب العقاد هذه القطعة علق عليها بقوله : ولقارئ من أولئك القراء أن يسأل ألف مرة : ما معنى هذا ؟ ما معنى هذا ؟ فلا يظفر بجواب يقنعه ولا يرجع بغير الخيبة ، وماذا عسانا نقول له إذا سألنا : هل فى هذه القطعة جناس ، هل فيها عواطف ، هل فيها معنى غريب ؟ هل فيها ألفاظ وأساليب ؟ ماذا عسانا أن نقول له غير " لا " فى جواب كل سؤال ، وأن نسبقه بها إلى جواب كل ما يسأل عنه أمثاله وكل ما يطلبونه من الشعر وفى كل كلام . غير أننا نضرب المثل الأعلى للبلاغة الشعرية بهذه القطعة التى تلوح له هزيلة ضامرة لا تساوى بيتًا من ابن لباته ، ولا شطرة من صفى الدين ..... "[2].

وإفهام القصد وتوصيل المراد وإبلاغ الحاجة كل هذه المعانى ذكرها وفطن إليها الأوائل من أرباب هذا الفن ، ولم يقل أحد من علماء البلاغة أن شرط الكلام البليغ ما كان مسجوعًا أو مجنسًا أو متكلفًا ، أو مصطنعًا ، أو غير ذلك[3].

ويرى العقاد أن دراسة الجانب النفسى واجبة لأن دراسة الكلمات والألفاظ لا تهدى الناقد إلى المراد يقول العقاد : " وجوب الدراسة النفسية فى فهم كل أسلوب

(١) يوميات ٢ / ١٩٩ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٣) انظر : الصناعتين ص ١٤ ، ١٥ . أبو هلال العسكرى – تحقيق / على محمد البجاوى.

من أساليب التعبير . لأن النقد الذى يأخذ البلاغة أخذه مجموعة من الكلمات والألفاظ المنسوقة لن يصل إلى نقد التعبير كما صدر من صاحبه ، إذ كانت العبارة ونفس المعبر صفتين حيويتين ، ولا قيمة للأدب الذى ينعزل عن الحياة "[1].

نعم لا قيمة للأدب الذى ينعزل عن الحياة ، لكن من الذى قال قديمًا أو حديثًا إن الكلمات والألفاظ بمعزل عن الحياة أو قال إنها بمعزل عن نفسية الشاعر بل أقول إنها من أنجح الأسباب للوقوف على نفسية الشاعر ، وللوقوف على معرفة أحاسيسه ومشاعره ، فهى تصور لك حالة الشاعر من فرح وسرور أو حزن وألم ، ومهما اجتهد المبدع وتكلف وتصنع وأعمل عقله وفكره لاستبدال الكلمات والألفاظ التى تعبر عن حالته بكلمات وألفاظ أخرى فلن يستطيع وعز عليه الطلب ، وكذلك أرى علماء النفس والنقاد المهتمين بدراسة نفسيات المبدعين إذا عز عليهم معرفة تاريخ حياة الشاعر ، فزعوا إلى عمله الأدبى يتأملون ما فيه من ألفاظ وعبارات ، وتراكيب فتهديهم أفضل هداية إلى الوصول لمرادهم وتحقيق غايتهم ، وكذلك إذا تضاربت القوال فى معرفة حياة الشاعر كان الفيصل والمرجح هو عمله الأدبى بما فيه من كلمات وألفاظ .

والعقاد نفسه عندما يكتب عن ابن الرومى ، كان شعر ابن الرومى مفتاحًا لشخصيته بل واسم الكتاب الذى ألفه العقاد يدل على ذلك " ابن الرومى حياته من شعره " أى أن الملهم لمعرفة الحياة هو الشعر بما فيه من ألفاظ وكلمات وتراكيب ، ولو كان العقاد محقًا فيما ذهب إليه لكان أولى به أن يسمى كتابه " ابن الرومى شعره من حياته " إلا أنه لم يفعل ، وصنع ما يتلاءم مع الصواب .

يقرر العقاد حقيقة لا يختلف فيها اثنان وهى أن ترجمة أعمال المبدعين سواء أكانت من العربية إلى اللغات الأخرى أو العكس يضيع معها العديد من الأسرار البلاغية ويضيع معها ما تشتمل عليه نفس المبدع من مشاعر وأحاسيس وانفعالات واعتقاد وإيمان بما يقول .

(١) يوميات ٢ / ٤١٨ ، ٤١٩ .

يقول العقاد : يعلم أن فى اللغات الأوروبية عبارات لا يسهل نقلها إلى العربية بقوتها وطلاوتها ونفاذ معناها وبلاغة إيجازها ، فإذا نظرنا إلى هذه العبارات بدا لنا أن ملكة التعبير فى الأديب لا تكمل ولا تستوفى ثقلها وتدريبها إلا إذا عالجت تلك العبارات وتطرقت إلى سرها واقتبست من سحرها وعفت مخارجها من الأفكار ومواقعها فى الأسماع ، ولكنك تستطيع أن تقول مثل ذلك فى اللغة العربية وأن تهتدى فيها إلى شذرات وأبيات لا ينقلها أبلغ الناقلين إلى الأوربية إلا تعثر به الجهد دون شأوها من البلاغة والعذوبة ، فهنا تتعادل الكفتان بين اللغة العربية واللغات الأخرى ، أو تفترقان ولكنه فى فرق المقدار لا فى اللباب [1] .

وكلام العقاد هذا يرشدنا إلى اهتمامه البالغ بأمر البلاغة فهو لم يغفل شأنها حتى الترجمة من لغة على لغة ، وحكمه هذا لم يأت من فراغ بل بعد مقارنات دقيقة بين عدد من النصوص قبل ترجمتها وبعد ترجمتها ، وملاحظة ما أصاب البلاغة من ضعف ووهن من حيث الأساليب والمعانى بسبب الترجمة ، ولو أفصح المترجم فى نقل معظم الأساليب والمعانى فلا محالة أن سيخفق فى نقل معظم المشاعر والأحاسيس مهما أجهد نفسه وأتعبها .

وكتاب البؤساء للكاتب المشهور (فكتور هيجو) ذكر العقاد ما فيه من عيوب بقوله : " أما هذه العيوب على الجملة فهى إطنابه فى غير طائل ، وإيثاره القشور المموهة على اللباب المثمر ، والتفافه من الأشياء إلى علاقاتها الوهمية دون علاقاتها الصحيحة ، وإنه عظيم الشغف بالأخيلة الضخمة يستحضرها ويحتفل بتزويقها والتزيد منها تقديمًا لوقع الكلام فى السمع على مغزاه فى الذهن ومسراه فى النفس ومصدره من القريحة المرهفة والسليقة الخالصة " [2] .

(١) ساعات بين الكتب ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٢) الفصول ص ٥٧ ، عباس محمود العقاد – دار المعارف المصرية ١٩٨٦ م .

وبعدما ذكر العقاد العيوب الكثيرة التى اشتمل عليها كتاب البؤساء أعقب ذلك ثناءه العاطر على ترجمة حافظ لهذا الكتاب وخاصة الجزء الثانى منه حيث قال : " أما هذا الجزء الثانى من حيث هو ترجمة من عمل حافظ فلا خلاف فى أنه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية ، وصفحة نادرة من صفحات البلاغة العربية فيها . ولا نغالى إذا قلنا أننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة فى البلاغة من طبقة بعض التراجم الإنجليزية فى لغتها .... " [1] .

وهذا يضم إلى ما أسلفته من قبل من إنصاف العقاد للبلاغة العربية ويضاف إليه هنا أنه قد أبدى إعجابه الشديد بالترجمة العربية ، وعدها صفحة نادرة من صفحات البلاغة ، وهذا أيضًا يؤكد ما ذهب إليه من مقته لإساءة استعمال البلاغة فى أى لغة من اللغات .

وقد اشتهر العقاد ببغضه الشديد لشوقى وكثير من المشتغلين بالنقد من أنصار شوقى قاموا بالدفاع عنه بذكر الأسباب التى حملت العقاد إلى أن يذهب إلى ما ذهب إليه وهذا الأمر ليس له صلة قوية بهذا البحث لكن المهم هو التركيز على السبب الذى دفع العقاد إلى هذا الأمر ، وهو يؤكد أنه عندما يتوجه بالنقد لشوقى ليس معناه أنه يمقت الأدب القديم ، بل نقده نابع من عدم استقلالية شوقى وسيره فى ركاب محاكاتهم ، وعدم الابتكار والتجديد اللذان يدلان على قوة الانفعال وحياة الإحساس ويقظة المشاعر ، وما يحدث عن ذلك من أثر [2] .

والعقاد كما ذكرت أنه لا يمقت البلاغة العربية لذاتها ، ولكن لأنها فقدت بشكلها ونصها ، واستعمالاتها عند الشعراء السابقين ، والسابقون عند استعمالهم لتلك الألوان لم يحاكوا أحدًا ، بل ينظمون ما يحسون به ويعايشونه ، وهذا على عكس

(١) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) انظر : ساعات بين الكتب ص ١٦٨ .

ما يتصنعه ويفتعله المحدثون وعلى رأسهم شوقى ، ويؤكد العقاد أن هذا الأمر لا يعرفه ولا يؤمن به من النقاد إلا من آمن بالتحرر وعود نفسه عليه [١] .

والعقاد يبغض التقليد من شوقى ومن غير شوقى فنراه يتحدث عن نثر - البكرى - ويبرز محاكاته للعباسيين فيقول : " وقد كان البكرى عباسيًا فى صياغة نثره الذى كان يتحرى فيه التجويد والبلاغة ، كما كان عباسيًا فى روح الشعر واختيار القدوة ويبدو لنا أنه كان فى نثره أشعر منه فى نظمه ، لأن موضوعاته المنثورة صالحة لموضوعات الشعر الصادق وفيها نفحة من نفحاته ، ولولا الولع بمحاكاة المقامات والإكثار من التشبيهات وذكر الآثار الدوارس لكانت أقرب إلى السليقة وأدخل فى باب الأدب الحديث " [٢] .

والعقاد يشير على أهم الأسباب التى أدت إلى ضعف الشعر فى مصر حيث يقول : " ونرد الجهل بالشعر إلى أسباب كثيرة عارضة يرجع بعضها إلى مقاييس القدم التى كانت تجعل البداوة الجاهلية مثلاً لكل كلام بليغ وكل شعر مأثور ، ويرجع بعضها إلى الدراسة الفرنسية التى أولعت بالزخارف والطلاوات والكياسة المتظرفة والمعانى المصطنعة ، ويرجع الشىء الكثير منها إلى عزلة الجماهير واحتجاب المرأة وعصور الظلم والجهالة التى ثقلت وطأتها على هذه البلاد " [٣] .

وربط الشاعر بعصره وبيئته ومجتمعه أمر مهم ينادى به كل ناقد بصير ، كذلك عدم الانسياق وراء الآخرين ومحاكاتهم فى كل غث وثمين ، وفهم الشاعر لطبيعة الشعر وما ينبغى أن يكون عليه ، وضعف الشعر بالعوامل البيئية المؤثرة ، كل هذه الأمور مهمة يجب الوقوف عندها عند دراسة النصوص .

ولست مع العقاد عند فصله بين الشاعرية من جهة وبين الملكة والبلاغة وحسن الأداء من جهة أخرى ، حيث يقول : " ولا ننسى أن الشاعر الذى يمثل جيله

(١) انظر : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٥٥ - عباس محمود العقاد - نهضة مصر ١٩٧٧ م .

(٣) ساعات بين الكتب ص ١٦٨ .

أحسن تمثيل قد يدل على صدق فى الملكة وأمانة فى التعبير وبلاغة فى الأداء ، ولكنه قد يدل على تفوق فى الشاعرية ولا تكون له الحجة على زميله الذى يعبر عن أمور يجهلها معاصروه ثم يعرفها له الناس بعد زمانه " [١] .

وهل معنى ذلك أن الشاعر الذى يتكلم عن أشياء لم تكن فى بيئته أو عصره ، ولم يعرفها أهل جيله ولو لم يتسم شعره بالملكة والبلاغة فى الأداء يحكم له بالشاعرية ، وهل حكم النقاد بالشاعرية للمتنبى لأنه تحدث عن أمور لم تكن فى عصره ولم يعرفها أبناء جيله ، وكذلك هل حكم العقاد نفسه لابن الرومى بالشاعرية لأنه وصف أشياء لم تكن فى عصره ، وكان الأحرى بالعقاد أن يقول : يشترط للشاعرية توفر الملكة والبلاغة فى الأداء سواء عبر الشاعر عن عصره أو غير عصره ، ولماذا سمى العقاد كتابه عن ابن الرومى - ابن الرومى حياته من شعره ؟ .

ويقول العقاد نحب أن نصحح هنا زعمًا قد يزعمه بعض الذين يقرأوننا ، ولا يعقلون ما نريد فنحن لا ننقد شعراء الجيل الماضى لأنهم قدماء أو يشبهون القدماء ، وإلا كان أولى بنقدنا المتنبى ، وابن الرومى ، وبيرون ، وشكسبير ... وما نظن أحدًا عرف الناس بفضل المتنبى ، وابن الرومى وغيرهما ، كما عرفهم أصحاب الحديث بذلك الفضل المجهول ..... [٢] .

ويقارن العقاد بين قصيدتين إحداهما للبحترى فى وصف الإيوان وأنه من صنعة الجن للإنس والأخرى لشوقى فى وصف آثار الأندلس ووصف آثار مصر وبعد عرضه لنماذج من القصيدتين يبدى إعجابه الشديد بقصيدة البحترى ويعلل ذلك بأنها تدل على صدق عاطفة البحترى وهى أبلغ وأوجز مما قاله شوقى ويرى أن ما قاله البحترى من البيان الموجز المعجز القهار ، وهل هناك أدل من هذا على حرص العقاد على تراثنا ، وأن له قيمته البلاغية ، ومنزلته فى عالم الإبداع ؟ ويرى أن العيب كل العيب فى المحدثين الذين راحوا يقلدون ، وتركوا مشاعرهم خلف ظهورهم ، وشغلوا أنفسهم

(١) ساعات بين الكتب ص ١٨٤ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ١٦٨ .

بالإتيان بشبيه يماثل تشبيههم ، واستعارة تحاكى استعارتهم ، فإن ظفروا بذلك فهذه بغيتهم وأقصى ما يبغون الوصول إليه "[1] .

وفى المقابل يشيد العقاد بكتابات الشيخ على يوسف ما كان منها فى الجانب الدبلوماسى أو العاطفى حيث يقول : " ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ الأعمى فى كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب الإنسان قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يأبى لها أن تقوده فى مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها العاطفة فى نفس العصامى الذاكر لعصاميته ، فكيف تقلبت به الحال بين الرضا والغضب أو بين الفرح والأسى .

وله فى رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعده من عدد البلاغة غير الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذى بطلت فيه حيلة الألسنة والأقلام ، كما بطلت فيه حيلة العقول والقلوب "[2] .

والعقاد ينفى اللوم عن البلاغة إذا صورت الشر أو عبرت عنه حيث يقول : " وإن التعبير عن الشر غير الشر فى ذاته ، وهذا حق .. لا ريب فيه فقد يكون الشىء شرًا محضًا ويكون التعبير عنه جميلاً يروق الناظر المتأمل ، ومن هنا نعبر عن اللؤم وهو قبيح بالكلام البليغ وهو جميل ، ولا مطعن على من يعبر ذلك التعبير من جانب الفن لا من جانب الأخلاق . وإن تصوير الشر فى ذاته غير عمله وتسويقه ، وكذلك لا ريب فى ذلك ، فلا حرج على أحد أن يتصور الشر ويعرفه ، ولكن الحرج أن يعمله ويستحسنه ، والحرج عليه فى هذا إنما يكون من ناحية الأخلاق لا من ناحية البلاغة والتصوير ، فإذا كان العقرب تلدغ الناس وتميتهم فلا لوم على المصور أن يرسم العقرب ويمثل فيها ، ولكن اللوم عليه أن يجعلها تلدغ وتميت وأن يستحب منها اللدغ والإماتة ، وهو حين يفعل ذلك لا يكون مصورًا ولا ينصرف النقد منه إلى التصوير "[3] .

---

(١) انظر : ساعات بين الكتب ص ١٧٢ .

(٢) رجال عرفتهم ص ١٦ - عباس محمود العقاد - نهضة مصر ١٩٩٢ م .

(٣) ساعات بين الكتب ص ٤٧٤ .

ويحكى العقاد قصة صديق له أيام التلمذة أرسل إلى شيخه الشيخ حمزة " قفة " بها تمر وأرسل مع التمر رسالة والمهم هنا نقل ما علق به العقاد على هذه الرسالة حيث قال " ماذا يقول ؟ أيقول أرسلت لك بلحًا فى مقطف أو قفة أو أشباه ذلك من الكلمات التى يكتبها كل إنسان لكل إنسان ؟ حاشى العلم وحاشى العلماء وحاشاه هو أن يقترف هذه الغلطة الكبيرة فى حق الشيخ أن يبتذل مقام العلامة اللغوى هذا الابتذال كيف ؟

أيذكر له القفة والبلح والمقطف فى خطاب ولو استطاع لبدل حروف الجر التى يفهمها عامة الناس ؟

وما أدرى أين عثر بكلمة المتوج هذه وعلم أنها مرادفة لكلمة المقطف فهلل لها وكبر وأخذ فى كتابة الخطاب ...

أرسلت ؟ لا أزجيت أولى وأبلغ .

إذن يكون مستهل الخطاب هكذا : " أزجيت إليك بمتوج فيه .... " .

فيه ماذا ؟ فيه تمر كما يقول عامة خلق الله ، معاذ الله بل فيه بسر ، فهى كذلك أولى هنا وأبلغ .. ، وإذا كان القاموس يقول إن البسر هو " التمر لون ولم ينضج " ... فلا بأس هنا بهذا التحريف المقصود ، إنه لأشبه بالمألوف من تطفيف قيمة الهدية وتصغير شأنها ، فلا ضير أن يجرى الكلام إذن على نحو هذه البلاغة النادرة "[1] .

ونقلت هذا الجانب اليسير من هذه القصة التى كتبها العقاد وأسهب فى كتابتها ، لكن لا ريب أن اختيار هذه الألفاظ التى كتبت بها الرسالة فيه شىء من التكلف والتصنع ، هذا ما حاربه العقاد فى جل كتاباته ، فكيف أبدى إعجابه به هنا بل وعده من البلاغة النادرة ؟ فهل يشفع له أن ذلك كان منه على سبيل التفكه والتندر أو لإعادة الذكريات ، أو غير ذلك ؟ .

---

(١) ساعات بين الكتب ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

الفصاحة

لا ريب أن الفصاحة هى شرط مهم من شروط البلاغة ، فلا يكون المتكلم بليغًا إلا إذا كان ملمًا بشروط الفصاحة ، وإن كان البعض فى القديم لا يفرقون بين الفصاحة والبلاغة .

ولكن نرى العقاد يفرق بين الفصاحة والعاطفة ، وهو يبدو أنه لم يقف على الفروق الدقيقة التى أشار إليها علماء البلاغة بين الفصاحة والبلاغة والتى استقر عليها الأمر فى الدراسات البلاغية .

والعقاد نقل نصوصًا إلا أنه لم يقف على المراد من معناها ، يقول العقاد : " وهبة الذلاقة والفصاحة قلما تتيسر لأحد مع عمق العاطفة وغزارة الشعور ، ويقول جون ستيوارت ميل فى فصل له على تعريف الشعر ، إنهما لا تتفقان فى الأمة الواحدة ، فقرق بين الفرنسيين والإنجليز بأن الأولين أمة الفصاحة والآخرين أمة العاطفة ، وقريب من هذا قول سهل بن هارون : (اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان فى واحد ، وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم) والفصاحة أليق ما تكون حلية من حلى النثر ، وشقاشق الخطابة ، وإنما كان ابن زيدون شاعرًا فصيحًا كما كان كاتبًا فصيحًا وكما كان متكلمًا فصيحًا ، ولم يكن كذلك لمزية له فى الشعر على غير الشعر ولا لأن فصاحته التى لم تكن تفارقه كانت تنم عن قوة عاطفية فيه إذ المعهود أن قوة العاطفة لا تملك الإنسان فى كل حين ولا تلازمه فى حيث يتكلم جادًا ولاهيًا وفى حيث يلقى الخطب ويقرض فنون الشعر ، ولكن لأنه كان حسن موهبة الكلام ، وكان كلامه طوع إرادته لا طوع خواطره وأطواره . وهذه الفصاحة فيه هى التى خيل لابن بسام أنها رونق الشعر فى كلامه المنثور ، فوحد الشعر والفصاحة ، وهما جد مختلفين ، وشتان معدن الشىء و طلاؤه "[1] .

(١) الفصول ص ٨٩ ، ٩٠ .

ماذا يعنى العقاد بالفصاحة ؟ هل يقصد ما عناه علماء البلاغة من شروط فى فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام أو فصاحة المتكلم ، لا أعتقد ذلك ، أو يقصد الفصاحة المرادفة للبلاغة ، كما توحى به الجمل السابقة ؟ أو يقصد سلامة مخارج الحروف كما يفهم من حديثه عن فضل اللغة العربية على سائر اللغات بما امتازت به من الدقة الفائقة فى مخارج الحروف ، كما سيأتى بيانه ، ومهما كان القصد فهل يعقل الفصل بين العاطفة والفصاحة أو الفصل بين الفصاحة والشعر أو الفصل بين البلاغة والشعر ؟ وكلام سهل بن هارون الذى نقله العقاد عنه لا يفهم منه إلا قوة الصوت وتأثيره ، وإلا فكيف يكون الشعر جيدًا وهو عار عن البلاغة ، ومن أهم مقومات الشعر الجيد اشتماله على البلاغة العالية .

وهل معدن الشىء هو الشعر والطلاء هو الفصاحة ؟ لم يقل أحد إن الفصاحة أو البلاغة هما الطلاء بل هما ملازمان لمعدن الشىء ومن أساسيات جودته .

وفى سطور قليلة يبرز العقاد المقياس الذى يتم به التفاضل والذى جعل منه البيان والفصاحة والصرف والإعراب [1] وهذا يشير إلى اهتمامه البالغ بكافة علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ، مع مراعاة العلوم المكملة من الدراسات التاريخية والنفسية والاجتماعية .

والعقاد يجعل العلاقة وثيقة بين مخارج الحروف والفصاحة ، ويؤكد أن دقة المخارج فى اللغة العربية تميزها وتميز أبجديتها عن سائر الأبجديات فى سائر اللغات الأخرى .

يقول العقاد إن اللغة العربية تستخدم هذا الجهاز - جهاز النطق الإنسانى - على أتم وأحسن ، ولا تعمل وظيفة واحدة من وظائفه كما يحدث ذلك فى أكثر الأبجديات اللغوية .. فلا التباس فى حرف من حروفها بين مخرجين ولا فى مخرج من مخارجها بين حرفين ، وقد تصححت فيها الحركات الصوتية الثلاث بين الفتح والضم والكسر ، فمضت فيها فصاحة المنطق على إبطال الإمالة بين هذه الحركات وإخراجها

(١) انظر : اللغة الشاعرة ص ٨٠ .

كلها مستقيمة ممزة ، كما يشاء معنى الإفصاح وهو فى جوهره إزالة اللبس فى الأصوات والحركات ، ولم يحدث لأبجدية أخرى غير الأبجدية العربية [١] .

وفى اللغات السامية حروف لم تعرف فى غيرها من العائلات اللغوية كما يسميها المحدثون ، ولكن لغة من اللغات - سامية كانت أو آرية أو طورانية - لم تحرر فيها المخارج بحروفها ولا الحروف بمخارجها كما تحررت فى لغة الضاد ، فليس فى لغة الضاد حرف ملتبس بين مخرجين ولا مخرج ملتبس بين حرفين [٢] .

ويذكر العقاد لفظ الفصاحة عند وصفه لنبى الله عيسى - عليه السلام - حيث وصفه بأن الناس يلتفون حوله لإعجابهم بفصاحته ، وخطبه الجميلة [٣] ، وهذه هى فصاحة المتكلم التى أشار إليها علماء البلاغة ، من أن الفصيح هو الذى تكون عنده القدرة والملكة على أن يأتى بكلام فصيح .

ولكن كيف تمش الفصاحة إلى هذا الحد عند العقاد ، فنراه قد أشاد بابن الرومى لسلكه هذا المسلك وهو حفاظه على الوحدة الموضوعية ولو خسر فى سبيل ذلك الفصاحة واللفظ [٤] .

العقاد له الحق فى الإعجاب والإشادة بالوحدة الموضوعية وإتمام الغرض الذى من أجله قيلت القصيدة ولكن ليس له الحق فى أن يجعل ذلك على حساب الفصاحة واللفظ ، وما قيمة القصيدة إذا اتحد موضوعها وخارت قواها وضعف كيانها ، وأصبحت جثة هامدة لا حراك فيها ، وما قيمتها إذا كانت ألفاظها غير مختارة بما يتلاءم مع الغرض الذى من أجله كان القريض ، والغريب أن قصائد ابن الرومى رغم اشتمالها على الوحدة الموضوعية جاءت تامة قوية فى غاية الفصاحة ، وألفاظها فى غاية القوة والجزالة ، والعقاد نفسه قد أقر بذلك .

(١) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ٨ ، عباس محمود العقاد ، نهضة مصر ١٩٩٥ م ، القاهرة .
(٢) أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ٢٠ .
(٣) ساعات بين الكتب ص ٥٥٣ .
(٤) انظر : ابن الرومى ص ١٦ .

والعلماء منذ القدم وهم فى خلاف فى هذه القضية فمنهم من يرجع الحسن إلى اللفظ ومنهم من يرجع الحسن إلى المعنى ومنهم من يرجعه إليهما معًا ، حتى شيخ البلاغة تراه يرجعه إلى اللفظ وتارة يرجعه إلى المعنى كما نقل الخطيب عنه وحاول الجمع بين القولين .

قال الخطيب : ولاشك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة فلا تكون راجعة إلى المعنى وقد صرح فيما سبق بأنها راجعة إلى المعنى دون اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات من غير اعتبار للتركيب وحيث أثبتت أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار إفادته المعنى عند التركيب [١] .

والعقاد ينتقد الاهتمام بالألفاظ ويعد ذلك ضربًا من الإنشاء ، أما الذى يكتب فهو يحفل بالمعنى الذى هو عنده ، وما عليه إلا أن يصبه فى قوالب [٢] .

ولكن من لم تكن عنده القوالب أو كانت عنده وتمنعت عليه وتأبت فماذا يصنع بالقوالب ، وهل كل من أتيحت لهم المعانى وتوفرت يستطيعون صياغتها فى قوالب ؟ ومن المعلوم بداهة أن المعنى الواحد قد يتناوله اثنان من المبدعين ، فيوفق أحدهما فى صياغته ووضعه فى ثوب قشيب يسر الناظرين ، والآخر يخفق فى توصيله ونقله إلى المتلقى كما يجب ، وما ذلك إلا لقلة بضاعته من الألفاظ الجيدة وحسن صياغته وفهمه الجيد للتراكيب .

وجملة " يصبه فى قوالب " تتنافى كل المنافاة مع ما ينادى به العقاد ومع ما ينادى به كل ناقد خبير بأسرار العربية وعالم بدقائقها ، فالجملة تشعرك بالجمود وعدم المرونة وتحس منها أن الألفاظ مصممة ومخصصة ولا يستطيع المبدع من قيودها وحدودها فكأنا ، ثم أين العواطف وأين الأحاسيس وأين الشاعر وأين وأين .. إلخ .

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة ١ / ١٤ ، ١٥ .
(٢) ساعات بين الكتب ص ٢٧٥ .

ويتحدث العقاد عن ربيان الذى يضحى بالعبارة المحكمة فى سبيل العبارة الجميلة ، ويؤيده فى هذا الاتجاه إلا أنه يستثنى تعمد ذلك ، وهو يلقى باللوم على من اتخذوا هذا الأمر مذهبًا ، فالمطبوع على حب الجمال لا يضحى بالحق ، ثم يفرق العقاد بين البهرج والجمال ويجعل الأول عيبًا قادحًا ، والثانى مما يحرص عليه صاحب الذوق السليم ، ثم يلقى العقاد باللوم على من خلطوا بين الأمرين [1] .

ويقول العقاد أما الأسلوب فإن كنت تعنى الأسلوب المرسل فى مثل كتابى كليلة ودمنة والحيوان فعلم الحساب يثبت لك أن هذين الكتابين أقل فى عدة المفردات وتنوع التراكيب ووضوح الأداء والقصد فى العبارة من كتب المعاصرين التى يحتفلون لها بالتجويد والانتقاء ، وإن كنت تعنى أسلوب المقامات والأسجاع والفواصل فهذه ما تركها أدباء العصر قيمًا لها ولا جهلاً بها لأن سخفاءه يجيدونها كما أجادها نبغاء المتقدمين ، ولكنهم تركوها ازورارًا عنها ، وعرفانًا بفضل البساطة والترسل فى الإفصاح عن طوايا الأفكار والنفوس ، وإنك لتجد فى كتابات الجاحظ وابن المقفع والجرجانى من الفهامة والغموض كلما اعتمدوا التفكير ما يقل مثله فى كتابات المعاصرين النابهين .

وليس من الصواب أن نقول إن النثر لم ينضج عندنا لأننا لا نكتب القصص كما يكتبها الغربيون ، فإن القصة أقل أبواب النثر حاجة إلى غزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، لأنها تبلغ بالإسهاب والحوار وإلقاء الكلام على ألسنة العدد الكثير من الناس ما يبلغه كاتب الرسائل بالقول الصادح وجوامع الكلم ووضع الحصر فى موضع التوزيع [2] .

وهل القصص لا يحتاج إلى غزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، وهل ينفصل الأسلوب القصصى عن سائر أنواع النثر من خطابة وكتابة ومقامة ، ولماذا يفضل

(١) انظر : ساعات بين الكتب ص ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) ساعات بين الكتب ص ٧٠ .

النقاد القصص المشتمل على غزارة المادة وبلاغة الأسلوب على الخالى منهما ، وماذا يقول العقاد عن القصص القرآنى وهو ذاخر بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب وهل عابه ذاك أو شانه ، بل رفع من شأنه وجعله أكثر تأثيرًا فى نفوس قارئيه ، وكذلك القصص الذى ذخرت به السنة النبوية المطهرة .

والعقاد يجعل الصدق من صميم البلاغة فعنده هو جوهر الجمال ، واس البلاغة ، لكن بعض الناس يعتذرون من تحريف المعانى بجمال الأساليب [1] . وهل يوجد ما يمنع من صياغة الصدق بأسلوب جميل ، ويعلم العقاد وغيره أن القرآن الكريم كله صدق وقد صيغت معانيه بأساليب هى غاية فى الجمال والإقناع والإمتاع .

والعقاد يصحح خطأ وقع فيه كثير من الذين رغبوا من اتخاذه سلمًا لهدم كل قديم ، فهو لا ينكر المعانى والخواطر وإنما ينكر أن تكون غاية ، ويؤكد أنها وسائل ، وعبارة " تعسف الخواطر " التى استعملها هنا تنبى عن مراده ، وتفصح عما فى نفسه [2] .

ويضرب العقاد مثلاً بالشاعر توماس هاردى الذى يفضله على شعراء العرب المعاصرين لأن جل اهتمامه بالأمور النفسية ، ولا يحفل كثيرًا بالمعانى والأساليب ، وإن جاءت فإنها تأتى عرضًا بغير قصد [3] . ويسوق قطعة شعرية له ويبدى إعجابه الشديد بها ، ويذكر بالتفصيل أسباب الإعجاب ، كما أنه يقر بأن هذه القطعة رغم خلوها من المعانى والأخيلة والأسجاع فهى فى القمة ، لأنها تعبر عما فى نفس صاحبها دون أدنى تكلف أو تصنع ، وقد أوفت بالغرض ، ولو عرضت هذه القطعة على بعض النقاد من العرب لكان مصيرها سلة المهملات [4] .

(١) انظر : ساعات بين الكتب ص ٧٠ .
(٢) انظر : ساعات بين الكتب ص ٢٠٤ .
(٣) ساعات بين الكتب ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٤) ساعات بين الكتب ص ١٩٤ .

والعقاد كان محبًا للبارودى ومولعًا بشعره لما فيه من طلاوة وحياة ونغمة وإيقاع ، ولكن يعجب لظلم النقاد له بسبب حزلقتهم فى التمييز والمفاضلة بين الشعراء فيعتبره من الشعراء المظلومين الذين لم يسلموا من تعسف النقاد الذين يحكمون الهوى ويجعلونه مقياس المفاضلة والمرجع الأوحد ، وهذا ما تنطوى عليه نفوسهم .

يقول العقاد : فإذا بدت على كلام الشاعر طلاوة الصناعة قالوا هذا صانع وليس بمطبوع ، وعز عليهم أن يجعلوه شاعرًا حسن الصناعة أو شاعرًا مطبوعًا على الصناعة الحسنة والوصف المنغوم ، وإذا بدت عليه الحكمة قالوا هذه فلسفة وليست بشعر .. كأنما الشعر والفلسفة لا يلتقيان ، أو كأن تصوير بعض الإحساس لا يحتاج إلى فلسفة وتفهيم بعض الفلسفة لا يحتاج إلى إحساس ، وإذا بدت عليه الركاكة فى اللفظ مالوا إلى التسليم له فى المعنى ليقولوا هو شاعر معانى وليس بشاعر صياغة وديباجة ، وربما عكسوا الأمر فقالوا إنه شاعر التدبيج والتحبير وليس بشاعر التوليد والتفكير ، ليعطوا كلامهم صبغة التميز وينزلوا أنفسهم منزلة الحكم والانتقاد ، وكثيرًا ما قابلوا بين شاعرين فحكموا لأخسهما شعرًا وأضعفهما ملكة بالسبق والترجيح لأن المرجوح فى نظرهم صاحب فكر وصناعة ، فيقولون عنه إنه صانع ومفكر وليس بشاعر ، ولأن الراجح فى نظرهم لا فكر له ولا صناعة ... وكادت هذه الحزلقة تجنى على البارودى فتخرجه من عداد الشعراء ، وإنه مع هذا لشاعر له من حسنات التذوق والتصوير وإلهام الحس ولطف الشعور وعذوبة الروح ما ليس للكثيرين [1] .

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

من بلاغة القرآن

والبلاغة من أهم العلوم التى كان للقرآن الكريم أكبر الأثر فى نشأتها ، ومعرفة قواعدها حيث وجد علماء التفسير أنفسهم فى أمس الحاجة إلى الكشف عن الأسرار البلاغية ، للوصول من خلال ذلك إلى معرفة كيف كان القرآن الكريم معجزًا ببلاغته ، والخروج بأنفسهم من حيز التقليد والترديد وإخراج غيرهم إلى حيز اليقين .

ثم جاء من بعد ذلك من عرفوا أهمية هذا العلم وصلته الوثيقة بمعرفة إعجاز القرآن الكريم ومن هؤلاء أبو هلال العسكرى الذى يقول : " اعلم ... أن أحق العلوم بالتعليم ، وأولاها بالتحفظ – بعد المعرفة بالله جل ثناؤه – علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ، الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها .

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها " [1] .

والعقاد يتحدث عن إعجاز القرآن الكريم ويمهد لهذا بكلمة عن الإعجاز والمعجزة ويؤيد مفهوم الإعجاز عند العرب ولا يرضى بمفهومه عند الإنجليز .

يقول العقاد : والمعجزة فى لفظها العربى قوامها الإعجاز أى الإقناع بن فاعلها هو الله لا سواه ومن ثم يكون الرجل الذى ساقها مساق الدليل رسولاً من عند الله ، وقوامها فى اللفظ الإفرنجى الإعجاب والإدهاش ، ولكنه معنى ناقص : لأن الشىء قد يكون معجبًا مدهشًا ثم يكون من عمل الناس كأكثر هذه المخترعات الحديثة قبل

(١) كتاب الصناعتين ص ٧ .

شيوعها ، وكجميع أعمال الشعوذة وما يسمى بالسحر والكهانة ، فإن هذه جميعًا عجائب تخالف المألوف وتبده الناظرين إليها بما يجهلون من أسبابها ، فالكلمة العربية إذن – المعجزة – أدل على معناها المقصود بها من أختها الإفرنجية وأقرب إلى غرض أصحاب المعجزات حين يسوقونها للإفحام والإقناع [1] .

وهذا هو التعريف الذى عرفوا به المعجزة حيث قالوا : " هى أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يخلقه الله تعالى على يد مدعى النبوة عند دعواه إياها شاهدًا على صدقه " [2] .

ولكن العقاد نراه يقلل كثيرًا من قدر ومكانة كتاب الرافعى " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " ويراه من الكتب التى تمثل البلاغة اليدوية حيث لم يأت فيه بجديد ، ويقرر أن ما كتبه عبد القاهر الجرجانى فى الإعجاز يشتمل على الإحسان والإبداع .

يقول العقاد : وعلى الذين يتكلمون فى إعجاز القرآن أن يبسطوا القول فى هذا وأن يقصروا الحجة عليه لأن كل حجة غيرها تحتاج إلى تتمة تبلغ بها إلى هذه النهاية – وسبيل الأستاذ مصطفى صادق الرافعى صاحب كتاب إعجاز القرآن الذى بين أيدينا الآن – أن ينحوا هذا النحو ويزيد فيه على من تقدمه إذا هو أراد أن يجعل لكتابه ميزة فى البحث المعقود عليه ، فأما إذا قصر فى هذا فليكن كتابه إذن نموذجًا فى البلاغة اليدوية ، أو تسبيحًا بالآيات القرآنية ، أو تحية يقرؤها المسلم فيرتاح إليها ، ويقرؤها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علمًا ولا تطرق من قلبه أو عقله مكان الإيمان والتسليم ، ولكن لا يقال عنه إنه كتاب فى إعجاز القرآن وليس فيه شاهد واحد على معجزات الكلام ، ولا هو نهج فيه ذلك المنهج الذى أحسن فيه الجرجانى أيما إحسان ، وأفاد به الآداب العربية أيما إفادة ، فإنما الثناء على كتاب تناهز صفحاته الأربعمائة

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٤ .

(٢) منهل الفرقان ١ / ٥٣ – محمد عبد العظيم الزرقانى – دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٦ م طبعة أولى .

حسنة طيبة يكتب للرافعى أجرها وثوابها عند الله ، ولكنها لا يكتب له فى سجل المباحث والعلوم ، ولا تعد من حسنات التفكير والاستقراء [1] .

هذا النقد الذى وجهه العقاد لكتاب الرافعى ليس نقدًا منهجيًا ولا موضوعيًا ، والأحكام جاءت غير معللة ولا مدلل عليها ، لماذا حدث هذا ؟ وقد عودنا العقاد أن يكون نقده واضحًا ومعللاً دامغًا ، هل لأن هذا الميدان غير ميدانه ، أو لأن حظه من القراءة عن إعجاز القرآن كان قليلاً ، أو قراءته فيه كانت ضعيفة وواهية ، وإذا كان العقاد لديه ما يؤهله للكتابة فى هذا الموضوع فلماذا لم يأت بأفضل وأحسن مما أتى به الرافعى ، أو بمثله أو أدنى منه ؟ .

وأنا مع الذين أشادوا بكتاب الرافعى وفى مقدمتهم العقاد وإن حصل منه ذلك بغير قصد ، حين اعترف بأن المسلم إذا قرأه يجد فيه راحة ، وأن الرافعى قد حظى بالأجر والمثوبة من الله ، والكتاب إن لم يحقق إلا هذين الغرضين لكفاه .

وكتب البشرى رسالة للرافعى فى تقريظ كتابه ، وهذا نصها : " على صديقى الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعى ، قرأت إعجاز القرآن فإذا أبلغ ما كتب مخلوق فى كلام الخالق ، لقد خيل إلى يا سيدى وأنا أتلو كتابك أن البلاغات كلها قد احتشدت بين يديك صفًا فكنت تتخير منها تخيرًا لا تنشئها إنشاء ، فإن ما جلوت من البيان لمن الإلهام يعلو عن التصرف ويجل عن التأليف ، وذلك لا ريب من فضل القرآن ، انتضح به ذلك القلم فجرى بما شاء الله بما يتهيأ لطبع كاتب . وحقًا إن هذا القرآن لا تنقضى معجزاته ، ولا تفنى عجائبه ، أليس من آياته فى هذا الزمان سفرك الجليل (إعجاز القرآن) ؟ ثم ليعذرنى سيدى إذا انقطعت عن مدى الكلام ، فلست ببالغه إلا بوزر من تلك البلاغة وعون من ذلك الإلهام " [2] .

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٧ .

(٢) رسائل الرافعى ص ١٢٦ – جمع وترتيب / محمود أبو رية – مطابع عيسى الحلبى القاهرة ١٩٥٠ م .

وهكذا توالت الإشادات بهذا الكتاب فقد أشاد به سعد زغلول ، وأشاد به صاحب الصاعقة وغيرهم [1] والكتاب لا ريب أنه دقيق وعميق فى بابه ، فقد اطلع صاحبه على العديد من كتب التراث التى تناولت هذا الموضوع وأفاد منها ، ثم أضاف إليها .

والذى حدا بالعقاد أن يذهب على ما ذهب إليه ما كان بينه وبين الرافعى من خلافات وإحن وعداوات كانت صفحات البلاغ مسرحًا لأحداثها ، والتى وصلت إلى حد تبادل الشتائم والسباب ، ولم تنقطع تلك المهاترات إلا بوفاة الرافعى ، ولذا أنا لا أثق فى نقد العقاد للرافعى ولا فى نقد الرافعى للعقاد .

والسهولة لا تتنافى مع الوضوح هذا ما أجمع عليه المنصفون من أئمة اللغة ، والعقلاء من النقاد ، والعقاد فى هذا الشأن لم يأت بجديد ، ولكن له تأملات فى آيات من الكتاب العزيز هى غاية فى الدقة والعجب ، استدل بها على أن السهولة والوضوح لا يتنافيان مع البلاغة والإيجاز ، يقول العقاد : ولقد تقترن العبارة البليغة بمعان جمة لا تزال تسترسل فى الذهن حتى يحتويها الغموض فى ظلال الفكر البعيدة وشعاب الخيال المستترة ولكن لا يلزم من ذلك أن يكون لهذا الكلام البليغ نصيب من الغموض الذى لابد تنتهى إليه معانيه ذهابًا مع الخيال ومطاوعة لتداعى الخواطر وتلاحق الصور . انظر مثلاً إلى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ التكوير ١٨ .فلعمر الله أى ثروة معنوية فيها ، وأى وضوح وإيجاز ؟ ثلاث كلمات موجزات هيهات تأنس لكل ما قيل وصفًا لأول طلوع الفجر ما تأنسه فيها من إعجاز التعبير ووفرة المدلول وتنوع الصور واتساع مجال السبح للخيال . وما خطرت لى هذه الآية مرة إلا تفتحت أمامى فجأة صورة كاملة للفجر البهيج ، بعضها تمم به العين فى ضحوة النهار ، وبعضها يلوذ بعالم الأحلام من غرابة ونفار فيهب على نفسى نسيم الصباح الندى ، وأتمثل الطبيعة ينهد به صدرها كأول ما تدب الحياة فى الجسم بعد طول السبات ، وأستروح أنفاس

(١) رسائل الرافعى ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

الرياض شائعة فى كل مهب ومطار ، سيارة بنفحات الرياحين والأزهار ، وتتبادر من هنا وهناك طيور طار عنها النعاس وخلائق فارقها كسل الظلام وشملها من تنفس الصبح ما يشملها من نوره فإذا هى حية صادحة ، مستوفزة صائحة ، وإذا الفجر كله كأنه نفس عميم من أنفاس القدرة الخالقة المبدعة : قدرة الحياة الأبدية المتجددة .

وهذه الصور الكاملة تلهمك إياها كلمة " تنفس " بسرعة البرق وخفة السحر ولذة الحلم ، فهل حفلت قط كلمة بمثل ما حفلت به هذه الكلمة الواحدة فى موضعها من الأشكال المألوفة والخاطرة القريبة والبعيدة ؟ ؟ وهل فى هذه الكلمة أو فى الكلمات الثلاث أثر لأقل تعمل أو غموض ، فمن هنا نعلم أن القدرة فى التعبير لا يعوقها الوضوح أن تبتعث الخيال إلى آخر مداه وغاية سبحه ، وإن الذى يهرب إلى الإبهام فرارًا من الجلاء إنما يهرب من عجز ظاهر إلى عجز مستور [1] .

لقد فطن العقاد إلى الإيجاز البليغ فى الآية الكريمة فبهذه الألفاظ القليلة جمعت الآية العديد من المعانى التى تنؤ بعرضها الصفحات الطوال ، وتتيح للخيال أن يدخل تحت هذا المعنى وما يتاح له من أحاسيسه ومشاعره وما يتيحه له عالمه الذى يعيش فيه ، من زمان ومكان وبيئة وغير ذلك .

وحالة الصبح عند تنفسه وانسلاخه من ظلمة الليل البهيم هى حالة متكررة يشعر بها وينفعل لها ويتأثر بها الكون كله على رحابته واتساعه . وإن كانت هذه الآية المتكررة تمثل حياة الكائن الحى منذ بدء الخليقة إلى أن تبدل الأرض غير الأرض من تجدد ونشاط وتغير متكرر ملموس ومحسوس فالآية تمثل الحياة بأثرها لأنه ما من يوم يمر إلا ويحدث فيه هذا التغير الواعظ البليغ .

وآية أخرى من كتاب الله - تعالى - تمثل جانبًا حيا من جوانب الآخرة ، وموقفًا مريعًا ومفزعًا ومحزنًا ، موقفًا واعظًا ومنبهًا ، بأوجز أسلوب وأبلغه وأقواه ،

(١) الفصول ص ٧٤ ، ٧٥ .

والعقاد له تأمل عجيب فى هذه الآية وتحليل بديع ، فرغم وضوح الألفاظ وسهولتها لم تر البلاغة العالية تغيب عن حرف من حروفها ، يقول العقاد :

والنظر كذلك إلى هذه الآية القرآنية فى الإنذار بيوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج ٢ . فأى هول لا يسبق إلى الروع من هذه الآية المعجزة ؟ وأى دهشة تفوق دهشة العقل من تلك الصورة الموجزة ؟؟ أى بلاء ذاك البلاء الذى يذهل الوالدة عن رضيعها ويتغشى الناس بحيرة السكر وهم مفيقون ؟؟ ليخيل للإنسان أن جهنم نفسها قد جنت من ضراوة وجوع فزحفت بأهوالها تلتهم الخلق التهامًا وما لهم من مهرب وما هم بمهتدين إليه لو أصابوه ، وإن الخيال ليهجم عليه الهول من هذه الصورة الداهمة حتى ليكاد يحجم عن استفسارها كما تحجم الفريسة عن التأمل فى وجه آكلها ، فهو لم يبلغ أوج الشعور فى وثبة واحدة ولكنه لا يحرم قليلاً ولا كثيرًا مما هو مدمج فى تفاصيلها ، والآية كما تراها ليس فى مفرداتها أو تركيبها أو معناها مسحة من خفاء أو كتمان . كذلك ترى بلاغة هذا التمثيل حيث وجدتها على تفاوت فى الدرجات والمناهج والأساليب [1] .

أما عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى فرأى العقاد فيها كرأى غيره من القدامى والمحدثين وهو عدم القدرة على ترجمته بنصه وإنما فى الإمكان ترجمة معانيه وهذا الذى حدث بالفعل ، وترجمة المعانى مهما بلغت الدقة فيه فلن تصل إلى روحه العربية من حيث النسق والبلاغة العالية التى هو عليها فى العربية التى نزل بها ، والذين ترجموا معانيه هم الذين أكدوا هذه الحقيقة .

إذن الترجمة هى ترجمة آدابه وتوجيهاته " ويبدو لنا أن هذا الرأى هو نهاية كل بحث فى الموضوع من وجهة النظر الإسلامية ، وقد أراد نظام حيدر أباد قبل عشرين سنة ونيف أن يعهد إلى إنجليزى مسلم بترجمة القرآن فتولاها الأستاذ مدوك بكال

(١) الفصول ص ٧٥ .

وصدرت الترجمة بعنوان (معانى القرآن المجيد) ، أو ترجمته التفسيرية وفى مقدمتها كلمة يقول فيها المترجم : " إن القرآن لا يترجم ، وهذا هو رأى الشيوخ السلفيين ورأى كاتب هذه السطور ، وقد نقل الكتاب هنا حرفًا وبذل فى نقله كل مجهود لانتقاء اللفظ الموائم للمعنى ، ولكن الثمرة لم تكن هى القرآن المجيد ، ذلك النسق العالى الذى لا يقبل المحاكاة ويكفى مجرد الإصغاء إليه لاستجاشة الدمع والهيام ، وكل ما هنالك أنها محاولة تتحرى جهد المستطاع أن تقتدى ببعض بلاغته فى اللغة الإنجليزية ولكنها لن تحل محل القرآن بالعربية ، ولم يكن المراد بها أن تحل محله " [1] .

وقد ذخر القرآن الكريم بالقصص ولقد تنوعت أساليبه وتعددت طرائقه وأنماطه والغرض من القصة هو الذى يتحكم فى طريقة العرض والأسلوب الذى تكون عليه . يقول العقاد : " فهى تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية ، وتتلى القصص للعبرة والموعظة فى القرآن الكريم ، ولتذكير الأحياء بمصائر الغابرين من الأمم الأولى .... " [2] .

(١) بين الكتب والناس ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٢) حياة قلم ص ١٧٩ – عباس محمود العقاد – دار المعارف – مصر ١٩٧٧م .

التكلف

يشرح العقاد معنى التكلف ، ويبين متى يكون معيبًا مشينًا ومتى يكون محمودًا ، أو لا يسمى تكلفًا ، يقول العقاد : " وإنما يعاب التكلف الذى يظهر فيه عناء الكلفة على صاحبه ويظهر عناء الكلفة عليه إذا ضيع معناه فى سبيل لفظه ، أو يظهر هذا العناء إذا تبين من الأسلوب أن المحسنات تذويق فى غير موضع التذويق .. وهكذا تكون الحلية التى تلبس فى غير موضعها ، كما تكون حلية الزخرف البهيج فى المأتم ، أو الزخرف الضاحك فى مواقف الجد والخطر ، أو يكون زخرف الإغراء حيث يستحب الوقار والحياء " [1] .

وهناك نوع من القدرة يتمتع بها المبدع لإتقان فنه وهى لو سميت تكلفًا عند بعض النقاد فهذا لا يقدح فى صاحبها ، يقول العقاد : " أما الكلفة التى هى القدرة اللازمة لكل مقتدر على فنه ، والتى هى وسيلة إلى الغرض منها بغير تضييع لمعناه أو لفظه ، فليست هى من التكلف ، وليس فيها عيب التكلف وهو المحاولة حيث يظهر العجز ، والادعاء حيث لا تثبت الدعوى ، وقد يكون التكلف فى هذه الحالة أنك تترك السجع وهو أبلغ فى الأثر وأجمل فى اللفظ وأهون على تأكيده وعلى حفظه وحفظ معناه " [2] .

ويضع العقاد مقياسًا للنقد الصحيح فيقول : " ومقياس النقد الصحيح فى ذلك أنك تعمد إلى الكلام المسجوع فترسله وتمحو مواطن الفصل والإيقاع فيه ، فإن كان المعنى واحدًا وعليه المزيد من جمال النغم وسهولة الحفظ وبلاغة الأثر فالمعيب المتكلف هو الكلام المرسل ، والمحمود السائغ هو الكلام المسجوع " [3] .

---

(١) يوميات ص ٣٦٥ .

(٢) يوميات ص ٣٦٥ .

والتكلف والتصنع ما حمدهما أحد وإن النقاد القدامى عند قراءتهم لعمل المبدعين إذا رأوا أثر التكلف أو التصنع على عمل من الأعمال فإنهم يعدون ذلك عيبًا قادحًا ومعيبًا .

يقول صاحب المثل السائر : إذا صورت فى نفسك معنى من المعانى ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع ولم يواتك ذلك إلا بزيادة فى ذلك اللفظ أو نقصان منه ولا يكون محتاجًا إلى الزيادة ولا إلى النقصان إنما تفعل ذلك لأن المعنى الذى قصدته يحتاج إلى لفظ يدل عليه وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعًا إلا أن تضيف إليه شيئًا آخر أو تنقص منه فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذى يذم من السجع ويستقبح لما فيه من التكلف والتعسف وأما إذا كان محمولاً على الطبع غير متكلف فإنه يجئ فى غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام وإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها وفى مثل ذلك فليتنافس [1] .

واشترط صاحب صبح الأعشى فى السجع " أن يكون بريئًا من التكلف خاليًا من التعسف محمولاً على ما يأتى به الطبع وتبديه الغريزة ويكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه فى المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع " [2] .

والعقاد فى كلامه السابق لم يأت بجديد بل هو تأكيد وتقرير لما قاله السابقون ، وفى هذا رد مقنع على الذين اتهموا القدامى بالإفراط فى الإعجاب بكل كلام مسجوع ولو كان على حساب المعنى ، أو جعلوا السجع شرطًا لكل كلام بليغ .

ويقرر العقاد ويؤكد بأن الشعر المسترسل الواضح الذى لا تكلف فيه هو الذى يخاطب الوجدان والضمير ، أما التكلف فإنه يفسد المعنى ويعقده [3] . والوضوح

---

(١) المثل السائر ١ / ١٩٨ .

(٢) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٢ / ٣١٣ .

(٣) الفصول ص ٧٧ .

والغموض أمران لا يتكلفهما المبدع والدليل على ذلك تراث الإنسانية والذى يمثل المبدعين فى بلاد الشرق والغرب قديمًا وحديثًا [1] والسهولة المفرطة ليست مقياسًا للبلاغة فإنك لا تجد لها نصيرًا أسوأ من أولئك الذين يجعلونها وحدها أساس البلاغة ومحورها ويقولون إنها هى دون المعنى كل ما يطلب من الشعر الرائق والنثر المستعذب ، ويردون على ذلك ابياتًا اتفقت الأذواق على استحسانها والإعجاب بها ولكنه فى زعمهم خلت من المعانى ولا فضل فيها لغير الصياغة اللفظية وطلاوة العبارة ، وأشهر ما ورد من ذلك قول كثير :

فلما قضينا من مِنًى كُلَّ حاجَةٍ ∴ ومَسَّحَ رُكنَ البيت من هُوَ ماسِحُ

وشُدَّت عَلَى حُدب المطايا رحالُنا ∴ ولا ينظرُ الغادي الذي هُوَ رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ∴ وَسَالَت بأعناق المَطِيِّ الأباطحُ

..... وهذه الأبيات حافلة بتلك الصور التى تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين فى الصورة المتحركة فيكاد القارئ ينسى كلماتها وحروفها وهو يتشمها لما يستشفه فيها من الأخيلة المتلاحقة وما يصحبها من الخواطر الحية المتساوقة ، إنها تنقل لك صور الحجيج غادين رائحين ، يجمعون متاعهم ، ويشدون رواحلهم ، ويحثهم الشوق إلى أوطانهم بعد أن قضوا فريضتهم التى فارقوا من أجلها ديارهم وأصحابهم ، ثم تنقل لك صور البطحاء تعلو فيها أعناق الإبل وتسفل وتنساب أحيانًا كما تنساب الأمواج كرة بعد كرة وفوجًا بعد فوج ، ثم تنقل إليك فى الوقت نفسه صور الركبان أقبل بعضهم على بعض جماعات جماعات يتجاذبون أطرافًا من الحديث ويتطارحون آلافًا من الروايات والأنباء ويذهبون فى ذلك كل مذهب تلم به الأذهان فى حشد كثير مختلف الأوطان والأعمار متباين التجارب والأطوار [2] .

(١) الفصول ص ٧٤ .

(٢) مراجعات فى الآداب والفنون ص ٧٨ ، ٧٩ - بتصرف .

ويرفض العقاد أن تكون السهولة المفرطة مقياسًا للبلاغة ، وهذا يؤدى إلى انقلاب الموازين النقدية وفسادها ، يقول العقاد : " فإذا جعلنا السهولة ميزانًا لنا فى الفنون واتخذنا الشيوع عنوانًا على السهولة فقد تمادى فى ذلك حتى يصبح لنغ الأطفال فى عرفنا نماذج للبلاغة العليا ثم تنحدر البلاغة سفلاً حتى تنتهى إلى فحول الشعراء وأئمة الكتاب والفصحاء " [1] .

ويقارن العقاد بين مجموعتين من الأبيات ، الأولى عنده تمثل الشعر القوى الواضح البليغ ، وعلل لهذا الاستحسان بأن المجموعة لم تشتمل على ألفاظ صعبة تحتاج على الوقوف عندها ، لتأمل معناها ، والمجموعة الثانية اهتمت بالألفاظ والزخارف ، وهى تفهم ولكن بعد وقت ، وربما ينصرف قارئها إلى الألفاظ وتشغله عن المعنى الذى هو الغاية والمطلوب .

والمجموعة الأولى :

وإنك كالليل الذى هو مدركى ∴ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة ∴ على الهارب المطلوب كفة حالب

أخاف على نفسى وأرجو مفازها ∴ وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتى قبل مذهبى ∴ ومن أين والغايات قبل المذاهب

والمجموعة الثانية :

وأمطرت لؤلؤًا من نرجس وسقت ∴ وردًا وعضت على العناب بالبرد

أزورهم وسواد الليل يشفع لى ∴ وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

إذا ملك لم يكن ذا هبة ∴ فدعه فدولته ذاهبة

(١) مراجعات فى الآداب والفنون ص ٧٦ .

فالألفاظ فى الأولى تخدم المعنى وتريك إياه ولا تريك نفسها من أجل هذا كانت جميلة ، وكان قائلها بليغًا ، والألفاظ فى الثانية تستوقفك لديها وتحجب عنك المعنى ، ومن أجل هذا كانت مزورة ، وكان قائلها مبهرجًا لا حظ له من البلاغة والجمال [1] .

ويقارن العقاد بين شعر عبد المطلب وشعر البكرى ليخلص من هذه المقارنة أن البكرى متحرر فى شعره يصور واقعه كما هو ، أما عبد المطلب فإنه يحاكى القديم بكل ما فيه من بداوة .

ويختم العقاد هذه المقارنة بقوله : فإذا كانت الجزالة والفحولة هى بغية عبد المطلب عند أولئك الشعراء ، وإذا كان عبد المطلب يميل إلى قوة الأثر فالبكرى يميل إلى أبهة المنظر وروعة الموقع ، هذا يبنى قصرًا وذاك يبنى حصنًا ، وكلاهما ضخم باذخ ولكن كما يكون الفرق بين ضخامة البداوة وضخامة الحضارة ، أو بين بذخ الفطرة وبذخ الترف ، وحلية السذاجة وحلية الإتقان [2] .

لكن لا عيب فى السهولة إن جاءت على غير قصد أما إذا قصدها صاحبها وافتعلها فهى ممقوتة مذمومة فكما يتكلف المبدع للصعوبة يتكلف كذلك للسهولة ، والصعوبة إن أتعبت المتلقى فى تحصيلها واستيعابها وبدا فيها تكلف المبدع فبئست البلاغة هذه ، ولو أعجب بها البعض ممن يهتمون بكل غريب ووعر ويكلفون بكل نادر وصعب .

(١) انظر : ساعات بين الكتب ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٥٠ .

التوكيد

لم يشتهر لدى البلاغة التوكيد بالحركة كما اشتهر التوكيد بسائر الأساليب الأخرى ، لكن التوكيد بالحركات من الأهمية بمكان ، والعقاد يشير إلى هذا الأمر ويرى أن أهمية الحركة قد تزيد على الحرف ، والتمهل والتفخيم فى الحروف مرجعهما إلى الحركات ، يقول العقاد :

فمن رأى أن الحركة مهمة ثبت فى اعتقاده أن الإعراب مسائله جوهرية وليس بالمسائل العرضية ، ومن رأى أن الحرف هو المهم دون الحركة سهل عنده أن ينظر إلى الإعراب كأنه زيادة طارئة يأتى بها الوصل أو الفصل بين الكلمات . أما نحن فنعتقد أن الحركة فى اللغة مهمة كالحرف أو تزيد عليه فى الأهمية أحيانًا ولاسيما فى اللغة العربية ، لأن الكلام المنطوق سابق للكلام المكتوب ، ولأن الحركات هى وسيلة التوكيد والتنبيه بخلاف الحروف ، فإننا لا نستطيع لأن نؤكد الباء أو الفاء أو العين أو القاف بأكثر من اللفظ بها فى تمهل أو تفخيم ، وكلما عمدنا إلى التمهل والتفخيم فقد عمدنا إلى التمهل والتفخيم فقد عمدنا إلى حركة من الحركات .

لقد كان للحركات فى اللغة العربية شأن لا نحيط اليوم بجميع دلالاته ومعانيه ، ولكننا نلحظه فى الإعراب وفى غير الإعراب ، ونلحظه فى أول الكلمة ووسطها كما نلحظه فى نهايتها واتصالها بغيرها ، ونرى أن الاستغناء عنه يلجئنا إلى تغيير بنية الجملة كلها كما تتغير بنيتها أحيانًا من فعلية إلى اسمية ، ومن ترتيب مختلف إلى ترتيب مطرد فى جميع التراكيب [1] .

(١) بين الكتب والناس ص ٢٨٠ .

التقديم

والعقاد المتهم كثيراً بولائه للمبدعين من أهل الغرب نراه يشيد كثيراً بما امتازت به اللغة العربية عن اللغات الأخرى، ومن ذلك حديثه عن الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وتقديم الفعل على الاسم وما يتبع ذلك من المعنى

يقول العقاد : الجملة الاسمية موجودة في اللغة العربية ، وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في مواضعها ، فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزاً عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ، ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه ، وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من إرادة المتكلم وفهم السامع .

ومتى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الاسمية والفعلية فالاكتفاء بالجملة الاسمية كما تقع في كلام الأوربيين نقص منتقد وليست بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء .

وليس في وسع من يفهم مواقع الكلم أن يجهل الفارق بين قولنا « محمد حضر » وقولنا « حضر محمد » فإننا نقول «محمد حضر » إذا كنا ننتظر خبرٌ عن محمد أو عن حضوره على الخصوص ، ولكننا نقول « حضر محمد » لمن يسمع خبراً من الأخبار على إطلاقه ولا يلزم أن يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاماً عن حسن وعن علي كما ينتظره عن محمد أو لعله خبر سفر وليس بخبر حضور منتظر أو غير منتظر [1]

وعلماؤنا من أئمة اللغة عامة والبلاغة خاصة قد فطنو منذ القدم إلى ما أشار إله العقاد هنا وعلى رأسهم شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني حيث قال « لا نعلم شيئا يبغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٤ .

التي تراها في قولك زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق و المنطلق زيد و زيد هو المنطلق و زيد هو منطلق » [1]

وإن كان عبد القاهر بهذا يبرز دقة اللغة في ذاتها ، فإن العقاد أراد أن يبرز دقة اللغة العربية وثرائها بالمقارنة باللغات الأخرى ، ورغم ذلك فالوجهة واحدة والهدف واحد .

ويزيد العقاد هذا الأمر وضوحاً بحديثه عن تقديم الجار والمجرور كميزة تميزت بها لغة الضاد ، يقول العقاد « وأوسع من ذلك في وسائل التفرقة أن اللغة العربية تسمح بابتداء الجملة بحرف الجر ، وتؤدي بذلك معنى تحسبه الأجرومية الأوربية مجرداً من الكلام ، فإذا قال العربي « في الدار رجل » فهو كلام مفيد وتقديم الجار والمجرور فيه مقصود لأنه يشتمل على تنبيه لا يؤديه هذا الأداء قول القائل « رجل في الدار » .

أما هذه العبارة بعينها باللغات الأوربية فهي لفظ غير مفيد سواء تقدم حرف الجر أو كان التقديم للرجل أو الدار في تركيب من التراكيب كقول القائل « الدار فيها رجل أو « الدار رجل فيها » .... وهو تركيب سائغ عند الغربيين » [2]

وبعد هذه النماذج القوية المقنعة التي استحضرها العقاد لتوضيح مراده ، ومراد كل عربي غيور على لغة الضاد ، ودحض الشبه التي يسعى أصحابها للتقليل من شأنها والإضعاف من قوتها والنيل من منزلتها ومكانتها .

قول العقاد : وبعد : فهذه مزية من المزايا التي تكشف عنها المقابلة بين لغة الضاد واللغات الأجنبية ، وهي مزية من مزايا كثيرة في الألفاظ وفي التراكيب ، تستحق التنبيه إليها في زمان يكثر فيه من يتحدثون عن العرب أنفسهم عن اللغات التي تصلح أو لا تصلح للتعبير السليم أو الفصيح في أبواب العلوم والآداب . [3]

(١) دلائل الإعجاز ج: ١ ص: ٧٧ : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني: ٤٧١: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٩٥الطبعة : الأولى ،المحقق :: د.محمد التنجي .

(٢)أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٥ .

(٣) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٥ .

بناء الفعل للمجهول

إذا كان معنى الإسناد هو موضوع الكلام ولم يكن معناه هو اللفظ في موضع الفاعل أو نائب الفاعل فالفرق كبير بين « انكسر الإناء » و « وكسر الإناء لأن الموضوع في قولنا انكسر الإناء هو موضوع الكسر بغير نظر إلى فاعل معلوم أو مجهول ، ولكن صيغة الفعل كسر مبنياً على المجهول تشغل الذهن بمعنى غير معنى الكسر ، وهو النظر إلى الفاعل ، والعلم بعد ذلك بأنه غير معلوم ، وهو معنى من معاني الإسناد أو التكلم على الموضوع لا يتساوى عند التعبير بالكلمتين [1]

ويقارن العقاد بين صيغة بناء الفعل للمجهول في اللغة العربية وما يقابله من تعبير في اللغات الأخرى، ويحكم على التعبير في اللغة العربية بالدقة وفي اللغات الأخرى بعدم الدقة

يقول العقاد : نحن نقول فتح الرجل الباب ، ونقول ، فتح الباب ، بصيغ المجهول ، ولكن العبارة الأوربية التي تدل على ذلك تقابل قولنا ، إن الباب يكون مفتوحاً ، أو إن الباب صار مفتوحاً ، وهو تعبير يخلو من دقة الصيغة العربية لأنه أقرب إلى وصف منه إلى الإخبار ، ولا سيما التعبير الغالب عندهم وهو ما يقابل قولنا ، إن الباب مفتوح . [2]

وأبيات لحافظ إبراهيم يستحسن فيها العقاد مجيء الفعل مبنياً للمجهول ، ويرى أنه أدل على المعنى وأوفى بالغرض

يقول العقاد وكان بعض الأدباء يقرأ أبياتاً لحافظ إبراهيم من قصيدته في زلزال مسينا حيث يقول :

رب طفل قد ساخ في باطن الأر ض ينادي أمي أبي أدركاني
وفتاة هيفاء تشوى عل الجمر تعاني من حره ما تعاني

---

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٢٦ .

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٤٧

وأب ذاهل إلى النار يمشي مستميتاً تمد منه اليدان
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظا منه وان

قرأ الأديب هذه الأبيات ثم قال : حبذا هي لولا « تمد منه اليدان » .. فيالله شهد الله من ضرورات النظم لم يكن للشاعر بها يدان .

قلت حبذا إذن هذه الضرورة التي وفقت حافظاً لخير ما يقال في هذا الموقف، فلو أنه استطاع أن يقول يمد اليدين لما أتى بشيء ولهمد في البيت معنى الهول الذي يطالعك من قوله « تمد منه اليدان » فإن بناءها على المجهول هنا يريك أن الأب المروع لم يكن يدري ما يصنع وأنه ذهل عن وعيه فيداه تمتدان من غير شعور ولا فهم لمعنى حركاته ووجهة خطواته ، وعندي أن كلمة « تمد أو تمتد » في مكانها هذا أبين عن هول الزلزال من الأبيات الأربعة وما فيها من نار تأكل وأرض تتقعر وأصوات تصح ، وهذا توفيق إذا جاء به عن غير قصد فهو إلهام . [1]

وقد أشرت آنفاً إلى شهرة الفرق بين الفعل المبني للمجهول والفعل المبني للمعلوم وكل له مقامه وسياقه ، فإذا تطلب المقام بناء الفعل للمعلوم فلا يصح بناؤه للمجهول ، وإذا تطالب بناءه للمجهول فلا يصح بناؤه للمعلوم ، وإن صح فإنه لا يكون في نفس المستوى من حيث الوفاء بالغرض ، ولأئمة التفسير مقارنات بديعة وعجيبة ،لا سيما بين القراءات القرآنية .

ومن ذلك في فتح القدير وقوله (ولا تسئل) قراءة الجمهور بالرفع مبنيا للمجهول أي حال كونك غير مسئول وقرىء بالرفع مبنيا للمعلوم قال الأخفش ويكون في موضع الحال عطفا على بشيرا ونذيرا أي حال كونك غير سائل عنهم لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم . [2]

وأيضاً جاء في فتح القدير: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (تسأل) على البناء للمجهول وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم ، وفيه وجهان أحدهما

---

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) فتح القدير ج: ١ ص: ١٣٥ ،: محمد بن علي بن محمد الشوكانيالشوك: ١٢٥٠: دار الفكر: بيروت .

ان يكون في قتل ضمير يعود إلى النبي وحينئذ يكون قوله معه ربيون جملة حالية ، كما يقال قتل الأمير معه جيش، أي ومعه جيش ، والوجه الثاني ان يكون القتل واقعا على ربيون فلا يكون في قتل ضمير، والمعنى قتل بعض أصحابه وهم الربيون، وقرأ الكوفيون وابن عامر (قاتل) وهي قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد ، وقال إن الله إذا عد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، وإذا عد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل، فقاتل أعم وأمدح ويرجح هذه القراءة الأخرى .[1]

(١) فتح القدير ج: ١ ص: ٣٨٦ .

الجملة الاسمية والفعلية

الجملة الاسمية لها خصائصها ومميزاتها وكذلك الجملة الفعلية فالمقام الذي يتطلب الجملة الفعلية لا يصح التعبير فيه بالجملة الاسمية ، والمقام الذي يتطلب التعبير بالجملة الاسمية لا يصح فيه التعبير بالجملة الفعلية ، وهذا يرشدنا ويؤكد لنا دقة اللغة العربية في اختيار التعبير المناسب للمقام والسياق .

وقد جاء في الإيضاح : قوله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) كذبهم في قولهم إنك لرسول الله وإن كان مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه وأجيب عنه بوجوه أحدها أن المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا ألسنتنا، كما يترجم عنه إن واللام ، وكون الجملة اسمية في قولهم (إنك لرسول الله) فالتكذيب في قولهم نشهد وادعائهم فيه المواطأة لا في قولهم إنك لرسول الله [1]

وأيضاً (إنما نحن مصلحون) ادعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلي ولذلك جاء (ألا إنهم هم المفسدون) للرد عليهم مؤكدا بما ترى من جعل الجملة اسمية .

وقال أبو السعود في قوله تعالى (إنما سكرت أبصارنا) أي سدت من الإحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف ، أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أي حارت(بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد – صلى الله عليه وسلم – كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على أنهم يبيتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وإنما هو أمر خيل إليهم بالسحر، وفي اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وإيرادها بعد تسكير الأبصار لبيان إنكارهم لغير ما يرونه .[2]

وهذه الفروق الدقيقة يتخذها العقاد وسيلة وهي بحق من أنجح الوسائل لإبراز دقة اللغة العربية في تعبيرها .

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ج: ١ ص: ١٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ج:ص: ٧: محمد بن محمد العمادي أبو السعود المتوفى: ٩٥١: دار إحياء التراث العربي بيروت .

يقول العقاد : كتبنا في المقال السابق عن المقارنة بين لغتنا واللغات الهندية الجرمانية في موضوع الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وأشرنا إلى رأي بعض المستشرقين الذين يعللون علة الفعل على الاسم في ابتداء الجمل بالفطرية الشرقية والطباع الشرقيين على إبطال كل فعل غير فعل القدر ، مع إنكار « الصوت » على الشخصية الإنسانية ... وقلنا في مناقشة ذلك إن لغة الضاد تستخدم كلاً من الجملتين الاسمية والفعلية في موضعها ، فهي أولى من غيرها في هذا الباب ، وأن الفاعل لا يكون في كل حالة إنساناً أو كائناً حياً فلا محل هنا للقول بإنكار « الشخصية الإنسانية » (١)

(١) بتصرف مختصر في اللغة والأدب ص ٤٦

الفصل والوصل

العقاد يرد على القائلين من النقاد العرب القدامى بأن الوصل يحتاج من الإفرنج ، ويثبت أن اللغة العربية ذاخرة باستخدام حروف العطف ، وأحياناً يفهم الوصل من علامات الترقيم ، ويستدل على ذلك بآيات من سورة آل عمران .

يقول العقاد : كان قراء اللغة العربية وبعض اللغات الإفرنجية يحسبون أن كثرة الفصل بين الجمل خاصة من خواص الأسلوب الإفرنجي تطرقت إلى لغتنا من الترجمة أو من محاكاة كتاب العربين في وصف الجمل وتقسيم العبارات ، ولست أشك في أن الإفرنج أقل منا استعمالاً لحروف العطف والصلات اللفظية الظاهرة وأن بعض القدماء منهم نقلوا عنهم هذه العادة إلى الكتابة العربية فأحسن منهم من أحسن وأساء منهم من أساء ، ولكني أعتقد أن الفصل بين الجمل خاصة من خواص التفكير قبل أن تكون خاصة من خواص حروف العطف وصلات الألفاظ ، وأرى أن كتاب الإفرنج أكثر منا عناية بوصل المعاني وترتيب الموضوعات ، وأن ظهور على ترجمة أساليبهم لغتنا أقرب إلى التفكك والانقطاع بين الجمل والفقرات ، وأرى من ناحية أخرى أن البلاغة العربية لم تخل من الفصل الكثير في أساليب أفصح الفصحاء وأقدر الكتاب والمنشئين ، بل هذا القرآن الكريم تتوالى فيه الآيات أحياناً بلا صلة لفظية بينها غير الصلة التي تفهم من سياق الكلام وتؤديها علامات الترقيم أحسن أداء وأوضح الصحف الساعة على أول الآيات التي تصادفني وهي هذه الآيات من سورة آل عمران ، (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ) (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: من ١٦٩ إلى ١٧٣) وهي آيات تقع منها علامات الترقيم موقع حروف العطف في أكثر مواضع

الفصل والوصل ولا يؤخذ عليها ذلك عند قارئ من قراء العربية الأقدمين أو المحدثين ، وقد حفظها الناس ومثلوا بها للبلاغة العالية قبل أن تنقل أساليب الإفرنج إلى اللغة العربية بعدة قرون .[1]

ويعيب العقاد على حافظ بأنه لم يحسن في تدخله عند الترجمة بالوصل مكان الفصل حيث تسبب ذلك في ضياع معنى كان يقصده المؤلف وهو روعة المفاجأة المفهومة من معنى الاقتضاب ، وينقل العقاد قطعة من القصة ليدلل بها على مراده

يقول العقاد : وقد أفسد عليه – يعني حافظاً – هذا الولع بالوصل الذي ظنه من لوازم الأسلوب العربي جملاً كثيرة سمعناها منه ثم عدنا فقرأناها على وضع آخر ، ومنها هذه الجملة في وصف الجلسة حين قام بينهم مادلين يعترف على نفسه بالجريمة « فذهب بأهل القاعة وحالوا إلى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق ، فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطاً ولا مدافعين – أنسي كل غرضه – نسي الرئيس أنه جاء للرئاسة والمدعي أنه قام للاتهام ، والمحامي أنه مثل للدفع والحرس أنهم أقيموا للحراسة » فقد سمعنا منه هكذا ثم لخ به وسواسه فأضاف (الواو وقد) قبل نسي فذهب بما لمفاجأة الاقتضاب من معنى بليغ في هذا المقام ، وغريب هذا منه مع أنه أحسن الفصل في غير جملة من الكتاب [2]

(١) مراجعات في الأدب والفنون ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الفصول ص ٦٥ .

الإيجاز والإطناب

لا ريب أن الإيجاز إذا تطلبه المقام فهو أبلغ من الإطناب ، والإطناب إذا تطلبه المقام فهو أبلغ من الإيجاز . وجاء في خزانة الأدب « حسن البيان قالوا هو عبارة عن الإبانة عما في النفس بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس إذ المراد منه إخراج المعنى إلى الصورة الواضحة وإيصاله إلى فهم المخاطب بأسهل الطرق وقد تكون العبارة عنه تارة من طريق الإيجاز وطورا من طريق الإطناب بحسب ما يقتضيه الحال وهذا بعينه هو البلاغة وحقيقتها .»[1]

لا ريب أن الإيجاز بنوعيه ، إيجاز القصر أو إيجاز الحذف هو أشق على المبدع من الإطناب وأثقل ، وذلك لأنه بعد صياغة هذا الأسلوب واختيار هذا الطريق فإن سقوط كلمة من الجملة يؤدي إلى ضياع المعنى أو نقصه .

يقول العقاد : واستطرد الكلام إلى الإيجاز والإطناب فقال الباشا : إن الإيجاز متعب لأنه يحتاج إلى تفكير وتعيين ، ولكن الإطناب مريح لأن القلم يترسل فيه غير مقيد ولا ممنوع ، وقص علينا قصة رجل كتب إلى صديق له رسالة مسهبة ثم ختمها بقوله « اعذرني من التطويل فليس لدي وقت للإيجاز » وعقب عليها بقوله : إن هذا الاعتذار قد يبدو عجيباً لمن لم يمارس الكتابة ، أما الذين مارسوها فهم يعلمون صعوبة الإيجاز وسهولة التطويل .[2]

وما نقله العقاد هنا عن سعد ليس بجديد ولا مستغرب فقد عرف علماؤنا القدامى صعوبة ووعورة هذا الفن ، وأنه لا يتصدى له إلا من ملكوا ناصية البيان ، قال ابن الأثير عنه « وهو نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صلى وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى وذلك لعلو مكانه وتعذر إمكانه »[3]

(١) خزانة الأدب ج: ٢ ص: ٤٨٢ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ٢٧٢ .

(٣) المثل السائر ج: ٢ ص: ٦٨ .

وهل نفهم من كلام سعد والعقاد ومن سبقهما من علماء البلاغة أن الإيجاز أفضل من الإطناب ، الجواب ، لا ، ولكن الحكم في التفضيل هو المقام . قال ابن قتيبة « والإيجاز ليس بمحمود في كل موضع ولا بمختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال ، ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للإيجاز وكرر تارة للإفهام . »[1]

وأما الابتذال فقد أخطأ حافظ فهمه ، وينبغي أن نحاول تعريفه قبل أن نبين وجه الخطأ في فهم معناه ، فالإبتذال عندنا هو أن تتكرر العبارة حتى تألفها الأسماع فيفتر أثرها في النفس ولا تفضي إلى الذهن بالقوة التي كانت للمعنى في جدته ، ومن ثم فالابتذال مقصور على التراكيب ، ولا يصيب المفردات ، وما دام للكلمة معناها الذي يفهم منها ، وهي سرية مصونة ، فلن يتطرق إليها الابتذال ، ولو طال تكراره ، وإلا فيت اللغة، وانقرضت جميع مفرداتها بعد جيل واحد.[2]

(١) أدب الكاتب ج: ١ ص: ١٥ ، ١٦ . بتصرف : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري ،المتوفى: ٢٧٦: المكتبة التجارية :: مصر: ١٩٦٣ الطبعة :: الرابعة المحقق :: محمد محيي الدين عبدالحميد .

(٢) الفصول ص ٦٤ .

التشبيه

يرى العقاد أن التشبيه يزكو ويقوى في حياة البداوة ، ويضعف في حياة الحضر ، ويعلل لذلك بأن حياة البداوة سبب من أسباب النبوغ .

يقول العقاد ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء ، فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه مالا يعرفه وهو كثير بتشبيه شئ بشيء مما يعرفه وهو قليل ، ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار ، ولقد كان الشاعر دائماً أسبق من العالم في التاريخ فإن الإنسان يحس أولاً ثم يفكر ، فسخو القرائح في عهد البداوة وينبغ الشعراء في الأنحاء التي لم يستبحر فيها العمران أكثر مما ينبغون في غيرها .[1]

ويعلل العقاد لقوة التشبيه عند أهل البادية حيث يقول « لأن الأشياء المحسوسة عندهم أقل من الأشياء المتخيلة أو الغائبة ، ولأن التفرس والتوسم وإنعام النظر عندهم حاجة من حاجات الحياة بين الجبال والصحارى والسهول في الإقامة والسفر والغزو والدفاع ومعرفة الأنساب وتمييز فصائل الحيوان ، فإذا كثرت التشبيهات في كلامهم أحياناً فلذلك سببه الأصيل وليس سببه التشبيه لمحض التشبيه .. أي أنهم يصدرون عن الطبيعة والوعي الصادق في تشبيهاتهم ، ولا يصدرون عن رغبة مختلفة أو صناعة ممجوجة ، وقد جنى هذا على المحدثين من مقلدي الجاهليين وشعراء البداوة فنظروا إلى التشبيهات وغفلوا عن أسباب التشبيهات ، ووقعوا من أجل ذلك في سخف التلفيق والاصطناع . »[2]

فلا عيب في شعر أهل البادية ولا عيب فيما جاء عنهم من تشبيهات ، بل هي تمثيل صادق لحياتهم وبيئتهم ومجتمعهم وما يرى حولهم ، والعقاد بهذا ينصف شعرهم وينصف ما فيه من تشبيهات بل يجعلها في المرتبة العالية ، لكنه يلقي باللوم الشديد على المحدثين الذين يحاكون تلك التشبيهات دون معايشة ولا إحساس .

(١) خلاصة اليومية والشذور ص ٩ ، عباس محمود العقاد ، نهضة مصر .

(٢) شعراء مصر ص ٦٩ ، ٧٠ .

ويفرق العقاد بين الشعر العربي والشعر الإنجليزي ، من أن الأول يعتمد على التصوير والتشبيه على الحس ، والثاني يعتمد على العطف والعاطفة .

يقول العقاد : ومن الفروق الواضحة بين الشعرين العربي والإنجليزي أن أولهما يدور أكثره على الحس ، وثانيهما يدور أكثره على العطف والخيال ، فالشاعر العربي يصف امرأة لها سمات جسدية من الفرع إلى القدم نقاس وتكال ، وأما العاشق الإنجليزي فيصف المرأة التي يحبها كأنها روح عاطف له ثوب من الجسد الجميل ، فإن هو أشار إلى صفة من صفات هذا الثوب فليذكر به معنى من معاني العطف والتوسم يظهر أو يحس على حسب النفوس والأذواق . كذلك يشبه الشاعر العربي ما يصفه فإذا هو يعنى بالصورة المحسوسة دون الصورة الباطنية ، ويريك الهلال منجلاً والقمر درهماً والسنان طالساً وشارق ، ولا يحكي لك وقع هذه الأشياء في النفس كما يحكي لك صورها في الأحداق . ولولا ابن الرومي لخلا الشعر العربي من ملكة التصوير العالية وتشبيهاته الخيالية الرفيعة ، فهو في هذا الباب فريد هذا الشعر إلم نقل إنه فريد أشعار العالم كله ، وهو نعم العوض عن تلك الخسارة التي لا يدركها نقادنا السابقون ومن جرى جروهم من نقادنا التابعين .[1]

والعقاد يتكلم عن الملكة التي كان يتمتع بها ابن الرومي ، ويبدي إعجابه الشديد بها ، ويؤكد أنه لم ير ملكة في قوة التصوير بما يحتويه من لون وشكل ومعنى وحركة لأحد من الشعراء لا في القديم ولا في الحديث مثل هذه الملكة التي كان عليها ابن الرومي .[2]

والعقاد يروي قصة عن ابن الرومي ليثبت بها اعتزاز ابن الرومي بشعره وبما فيه من تشبيهات ، وفي تعقيبه على هذه القصة يقرر أن ما ذكر من أبيات لابن المعتز هي لا تخل ما لديه من تشبيهات قوية .

---

(١) ساعات بين الكتب ص ٤٨٩ .

(٢) ابن الرومي حياته من شعره ص ٢٥٨ ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت .

يقول العقاد : زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال للائمه : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله فأنشده قوله في الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني فأنشده قوله في الأزربون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود :

كأن أزربونها والشمس فيها كالية

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح وا غوثاه ، تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته وأنا أي شئ أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس » إلى آخر القصة .

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاملون الأدب في عصر ابن الرومي ، وبين الذين يتعاملونه في هذه الأيام . فلابن المعتز تشبيهات أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وأنقى في المعنى والديباجة ، ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها ، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به ، وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض ، ومضاهاة أصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى في هذه الصناعة .. ثم يليه الشعراء على حسب الأشعار في سوق المشبهات ، وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك في حاجة إلى مثل ذلك الإثبات الذي لا طائل تحته ، فأما أنه حس وتخيل وصور إحساسه ، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده في باب البلاغة والشاعرية ، وهذا خطأ بعيد في فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الآلية التي تحكي الناظر

الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية ، فالمسافة بعيدة جداً بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرآة أو المصورة الشمسية ، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله في روعه وجعله جزءاً من حياته ، وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه ، ولكن إنما يعنيك منه أن يكون إنساناً حياً .... [1]

والأستاذ الدكتور أبو موسى قد رد على العقاد ، فبعد ما نقل القصة الواردة علق عليها بقوله « ذكر المرحوم العقاد قصة ابن الرومي مع تشبيهات لبن المعتز ، وهي قصة مشهورة ... ولست أدري كيف يعمم العقاد هذا التعميم الذي يتجاوز الروح العلمية تجاوزاً واضحاً ؟ وكيف يقرر أن الناس كانوا يعتقدون أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبه به وهم يقولون إن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ... وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وأحناش الأرض والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم مسيرة في حواضرهم وبواديهم قد تمثلوا فيها بأحقر الأشياء ، فقالوا : أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب وأسمع من فراد ، وأحرد من جرادة ، وأضعف من فراشة ، وآكل من السوس .. (الكشاف ج ١ ص ١١ ، ١٢ . وكلام البلاغين في بلاغة التشبيه في قوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً) (الجمعة:٥) كلام مشهور جداً ولا يخلو منه كتاب من كتب البيان ، ولو كان الأمر كما يقول العقاد لأسقطوا هذا التشبيه لأن المشبه به غير نفيس ولأسقطوا أيضا(كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) (العنكبوت : ٤١ ، وما ضرب مثلاً بالبعوضة والذبابة والكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، وقد ورد ذلك في أفصح كلام وأعلاه ، والذين كانوا

(١) ابن الرومي حياته من شعره ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ . انظر خزانة الأدب ج: ١ ص: ٢٣، ٢٤ - انظر شعراء مصر ص ٦٧ ، والفصول ص ٧٦ .

يتعاطون الأدب في عصر ابن الرومي يشهدون لهذا كله ليس بالتفوق فحسب وإنما بأنه معجز في هذا الباب . ومثل هذا قوله : أن الغرض من التشبيه عندهم مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر إلى آخره . وكلام البلاغيين في مختصراتهم ينقض هذا كله ، ولا ريب أن العقاد أغفل كثيراً من جوانب تراث الأمة ، أو على الأقل لم يعطها حقها من البحث والنظر » [1]

وهذا رد واضح وصريح وفيه قوة وقد أشار أسلافنا إلى أن خفاء التشبيه يحتاج إلى كثرة التأمل والتفكير حتى يصل من خلال ذلك إلى ما يعنيه المبدع من التشبه .

وقال بن طباطبا : فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول ، أو حكاية تستغربها فابحث عنه ونقر عن معناه ، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة إذا أثرها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته ، وربما خفي عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في أشعارهم ، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم ، ولا تفهم مثلها إلا سماعاً ، فإذا وقفت على ما أرادوه ولطف موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك . [2]

إذا كان هذا هو رأي ابن طباطبا فيما ورد من تشبيهات وهو قريب عهد بالقوم وبعاداتهم وتقاليدهم وما فطروا عليه فما بالنا بالذين بعد عهدهم وتناءت أزمانهم مثل العقاد ومن على شاكلته .

ويسوق العقاد أبياتاً تشتمل على تشبيهات جيدة للمتنبي ، ثم يعلق عليها بتعليقات تكسبها قوة وجمالاً ، وكذلك البحتري ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومي ، وأبي تمام ، وقطري بن الفجاءة ، والمعري . وهذا يدل على تذوق العقاد للشعر القديم ، وإنصافه الواضح للأعمال الجيدة ، ويصف ما فيها من تشبيهات بالوضوح والجودة

(١) التصوير البياني ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ . د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة مصر ١٤١٣ - ١٩٩٣ .

(٢) عيار الشعر ص ١٧ ، محمد أحمد بن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ - ١٩٨٢ م .

مع عدم التكلف والتصنع ، إذن لا يبغض العقاد كل التشبيهات الواردة في الشعر القديم ، ولا يبغض التشبيهات لذاتها ، وإنما يبغضها إذا أحس فيها بالتكلف والغموض ، سواء أكانت في الشعر القديم أو الشعر الحديث .

يقول العقاد : والتشبيهات التي يخيل إلى بعض القراء والنقاد أنها هي قوام الشعر ودليل الشاعرية وهي عندنا لا تكون كذلك إلا إذا جاءت وسيلة لحسن التعبير ولم تجئ غاية مقصودة يتعمدها الشاعر ويتكلف لها ، ولو لم يكن لها دلالة ولا زيادة في إحساسنا بالشيء المشبه أو المعنى المقصود [1]

ومن الشعراء المتكلفين في شعرهم في العصر الحديث البكري كما أشار العقاد إلى ذلك حيث يقول « وقد كان البكري يظن أن التشبيهات مفروضة عليه فرضاً فلا يجوز له أن يدع شيئاً يذكره دون أن يشفعه بشبيه من لونه وشكله ، ومن هنا أصبحت أداة التشبيه أظهر حرف في أوائل جمله وعباراته فإن لم ترد ظاهرة وردت بمعناها في كل فقرة وكل صفحة محسوسة أو مدركة بالوهم والخيال .

وليس هذا هو القصد من التشبيه ، ولا لهذا حسن في الذوق ووجب في الشعر والبيان ، إنما القصد منه أن تعرف وقع الشيء كيف يكون والإحساس به كيف يجيء في النفوس . [2]

والعقاد يسأم الرتابة والسير على منهج واحد وطريقة واحدة ، في الاستعانة بالتشبيهات ، وينعي على من يحاكي تشبيهات الغير مثل تشبيه أبيض بأبيض أو أصفر بأصفر

يقول العقاد : وإنما هم جميعاً سواسية في تشبيه الورود بالخدود والبلابل بالقيان والأزهار بالأعطار وما إلى ذلك من الصيغ المحفوظة الصفات والمعهودة والرباعيات التي لا لون فيها ولا صدى ولا حس ... ربيع ؟ فلو كان في عالم السرائر

(١) شعراء مصر ص ٦٦ .

(٢) شعراء مصر ص ٦٦ .

مشبهون يتعقبون الجناة بسمات الوجوه والأجسام لحار والله المساكين في كتابة التشبيه وتقدير الأوصاف وتحرير المزايا بين أولئك الشعراء ، فكل شعرائنا طويل قصير بدين هزيل أبيض أسود أحول أعمص ، وكلهم توائم يعرفون بالملابس والأسماء ولا يعرفون بالأوصاف والسمات ، وكل ما يشهدونه من روعة الحياة لا يتعدى ذلك الذي يشهده كل ذي عينين حيوانيتين — كلبيتين أو بقريتين أو فيليتين إلى آخر ما في الحديقة من ذوات العينين ، فلو نظمت الكلام القطط يوماً باللغة العربية لعلمت منها أنها هي أيضاً تفهم كما يفهم شعراؤنا أن الورد أحمر وأن الياسمين أبيض وأن الزرع أخضر وأن في الدنيا أشياء أخرى حمراء وبيضاء وخضراء تشبه هذه الأشياء، وربما زادت على شعرائنا بفهم لا يفهمونه وهو تحية الحب التي يحيى بها كل ذي إحساس مقدم الربيع حاشا شعراءنا النابهين . [1]

وهذا يتضح كما اتضح من قبل أن العقاد لا يعترض على التشبيه من حيث هو تشبيه ، ولا يعترض عليه كفن من فنون البلاغة القديمة ، ولكن يعترض على التشبيهات التي أشار إليها علماء البلاغة ووسموها بالابتذال ، فهو يطلب من الشاعر أن يكون التشبيه نابعاً من إحساسه ، كأنه هو الذي ابتدعه وابتكره ، فلا محاكاة فيه ولا تصنع ، بل ما أحسه وشعر به أودعه في نظمه ، والمتلقي الحصيف الذواقة هو الذي يعرف ذلك ويفطن إليه .

ويقارن العقاد بين تشبيهين أحدهما لابن المعتز والآخر لمرئ القيس ليظهر فضل الثاني على الأول حيث يقول و« والتشبيه الذي لا يزيدنا حساً ولا تخيلاً فهو فضول وتعثر يعوق عن الغاية ولا يؤدي إليها ، ولذلك تنكر قول ابن المعتز في وصف الهلال وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه محض التشبيه :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

(١) ساعات بين الكتب ص ١٦٧ .

فلو أننا تمثلنا زورقاً من فضة وتمثلنا حمولة من عنبر تثقله لما زادنا ذلك إحساساً بالهلال ولا إعجاباً بحسنه وشكله ، وإنما هو التشبيه « الآلي » الذي هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر ووعيه .

وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرئ القيس مثلاً حين يقول في وصف الشحم :

وظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

فأنت حين تقرأ هذا البيت تحس فهم الأكل ونظرته إلى الشحم الذي يأكله والتذاذه بأكله ، وذلك هو المقصود بالشعر والمقصود من أجل ذلك بالأوصاف . ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن نفاسة الدمقس هي التي عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هي التي تعني ابن المعتز ، وربما ظنوا لذلك أن قيمة التشبيهين سواء وهما جد متفاوتين .....[1]

وقد فطن علماء البلاغة في القديم إلى الأسباب التي تجعل التشبيه قبيحاً متكلفاً ، ومن ذلك بعد المناسبة بين المشبه والشبه به قال ابن الأثير « وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا ، ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن »[2]

وقد أفرد ابن طباطبا باباً ذكر فيه طريقة العرب في التشبيه، وما جاء منه مخالفاً لهذه الطريقة بعده بعيدا ومتكلفاً[3] وقدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر يفرد باباً لنعت التشبيه[4] وباباً يذكر فيه عيوب الشعر .[5]

---

(١) شعراء مصر ص ٦٨ .

(٢) المثل السائر ج ١ ص ٣٤٨ .

(٣) انظر عيار الشعر ص ١٦ ، وص ٩٣ .

(٤) انظر نقد الشعر ص ١٢٤ ، لقدامة بن جعفر ، تحقيق ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

(٥) انظر نقد الشعر ص ١٩٠ .

ويربط العقاد بين نفسية الشاعر وحياته الخاصة وبين ما يستعمله من تشبيهات ، وهذه طريقة جيدة في التصدي لتحليل شعر الشعراء ، ولذلك إذا حجبت عن الناقد المحلل حياة الشاعر الخاصة ضاع منه الكثير من التعليلات المصاحبة للمعاني والداعية إليها .

يقول العقاد : قال ابن الرومي يصف الأرض في فصل الربيع :

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقد أخذ عليه صديقنا المازني خلطه في التشبيه بين المذهب الحسي والمذهب النظري . أما أنا فلا أميل إلى رأي الصديق في مؤاخذة الشاعر ، وقد أرى أنها لطافة حسن فيه جعلت نفسه تشعر بتلك العلاقة الخفية بين تبرج الأزهار وتبرج النساء ، ويلوح لي أن المسألة لم تكن عند ابن الرومي مسألة تشبيه جاءت به المناسبة العارضة ، وإنما هو شعور غامض في نفسه لا يفارقها . وآية ذلك أنه كرر هذا المعنى في غير ما موضع فقال في بعض رثائه :

لمن تسجد الأرض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبرج

وقال أيضاً :

لبست فيه حفل زينتها الد نيا وراقت بمنظر فتان
فهي في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان

وربما كان علة هذا الشعور الغامض اضطراب في جهاز التناسل هيج جميع أجزائه ..... ولا غرو فإن النفس إذا شفت كالبحر إذا شف يتراءى لناظره ما خفي في أعماق قراره .[1]

ويشيد العقاد كثيراً بتشبيهات ابن الرومي فتراه في موضع آخر بعد ذكره لنماذج عديدة من شعره الجيد المشتمل على تشبيهاته البديعة المعتمدة على الصورة الحسية في مقام السخرية .

---

(١) الفصول ص ١١٦ ، ١١٧ .

يقول العقاد : وأبرع ما يكون سخره كما ترى إذا هو شبه لك صورة محسوسة ، أو خلق لك من خياله صورة معنوية ، فإنه يحكم التشبيه ، ويحكم خلق الصورة فيضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ، ويضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد إلى خلق الشخوص المعنوية ..... وكان فضلاً عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة في اللفظ ، ولا في المعنى ، ولا في التصوير ..[1]

الشاعر أحمد شوقي يشبه القطار بالقطر حين قال :

قطارهم كالقطر هز الثرى ... وزاده خصباً على خصبه

لولا استلام الخلق أرسانه ... شب فنال الشمس من عجبه

لم ير العقاد شيئاً في هذا التشبيه إلا التجنيس حيث قال في تعليقه على هذين البيتين « أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيه لا أصل له ، ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة ، على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ، ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس في الحروف ، وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني ..»[2]

وقد استلهم العقاد هذا الحكم من علماء البلاغة كما سبق أن أشرت إلى ما قاله ابن الأثير من قبح مثل هذه التشبيهات وذلك لانعدام المناسبة بين المشبه والمشبه به .

والعقاد عندما ينتقد بعض الشواهد البلاغية ، وينتقد ما فيها من تشبيهات لا ينتقدها لذاتها وإنما ينتقدها من أجل الطريقة التي جاءت عليها ، فالنقد موجه إلى الشاعر فقط ، والدليل على ذلك أنه ما توجه بالنقد لعالم من علماء البلاغة القدامى

---

(١) ساعات في الكتب ص ٦١١ .

(٢) الديوان ص ٤٣ ، ٤٤ . عباس محمود العقاد ، وابراهيم عبد القادر المازني ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧ ، دار الشعب بمصر .

كعبد القاهر أو السكاكي أو الخطيب ، بل أثنى عليهم ثناءً عاطراً كما أسلفت ، ولم أر له اعترضاً على قاعدة من قواعد البلاغة ، بل اعتبرها ذخيرة باقية .

وهل القواعد عطلت الأحاسيس والمشاعر لدى المبدعين وهل فرضت عليهم التقليد والمحاكاة ، وحرمت عليهم التجديد والابتكار ، ماذا تصنع القاعدة إذا ماتت المشاعر والأحاسيس والعواطف لدى المبدع .

وأنقل هنا كلام العقاد في انتقاده لبعض التشبيهات حيث قال « ألا إن شعراً يسف إلى هذا الحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب إلا زغل الصناعة ، لا جزى الله صانعيها خيراً ، جعلوا التشبيه غاية فصرفوا إليه همهم ، ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ، ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالتشبيه كل صفات المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وأن الناس فقدوا الإحساس بها على ظواهرها ، نظروا إلى الهلال فإذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبهاً ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي لأنه لن يهرب يوماً فتقتفي أثره ، ..... فقال قوم هو كالخلخال ، .... وافتن قوم فقالوا هو كالمنجل .... وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصاد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر في هذر »[1]

---

(١) الديوان ص ١٧، ١٨ .

الاستعارة

الاستعارة تبدأ حيث ينتهي التشبيه ، وإن اشتملت عليه فهي أبلغ في أداء المعنى ، والاستعارة والتشبيه بينهما الترقي فلكل مقامه وسياقه فإذا تطلب المقام مجرد التشبيه فلا يصلح إلا التشبيه ، وإن تطلب المقام المبالغة في التشبيه إلى حد تناسيه فلا تصلح إلا الاستعارة .

الإحساس بلغ مداه في الاستعارة ، وارتقى إلى هذه الحالة التي يدخل فيها المشبه في جنس المشبه به ويصير فرداً من أفراده ، ويطلق عليه اللفظ الدال على المشبه به ، وهذا شئ غير التشبيه .

ومن هنا كان الحس بالشيء ورؤيته في التشبيه غير الحس به ورؤيته في الاستعارة ، وكأن بين أيدينا سلماً تتعاقب درجاته ويرتقي فيه الخيال درجة درجة ، أو سلسلة تتواصل حلقاتها وتمضي فيها الخيال واحدة بعد واحدة تبدأ من بداية الحس بالمشابهة بين شيئين مختلفين وينتهي عند توهج الإحساس بصيرورتهما شيئاً واحداً ، وكأن البلاغيين شديدوا التنبه والوعي بما تؤديه التراكيب في هذا الباب من وصف كاشف لحس صانعها ... [1]

وليست كل استعارة تضمنت التشبيه ثم تم تناسيه فهي حسنة مقبولة ، فهناك الكثير من الاستعارات التي لم يوفق أصحابها في اجتلابها لتوضيح المعنى أو المبالغة فيه ، ويرجع ذلك إلى مخالفة القواعد التي وضعها العلماء .

فالاستعارة لا تستعمل إلا فيما يليق بالمعاني ولا تكون المعاني به متضادة متنافية ، ولهذا حدود إذا خرجت صارت إلى الخطأ والفساد . [2]

---

(١) التصوير البياني ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . الحسن بن بشر الآمدي - (٣٧٠) ج ١ ص ٤٠ ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢ .

ويظهر العقاد مكانة اللغة العربية ومنزلتها ، ومن مظاهر ذلك استعمال اللفظ في مدلوله اللغوي ، وفي غير مدلوله ، دون أدنى لبس أو غموض في كلا الاستعمالين ، ويذكر عدة أمثلة يمثل بها علماء البلاغة عند استشهادهم ، وهذا يدحض المزاعم القائلة بأنه يحارب البلاغة القديمة بقواعدها وأمثلتها .

يقول العقاد : ومن خصائص هذه اللغة في تعبيراتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين ..... فلا لبس في قول القائل إنه « يقيد شوارد الأفكار » ولو شفعها بعد ذلك باستخدام كلمة القيد في تقييد الأسير والسجين . ، .... وسليقة اللغة الشاعرة هي التي تجعل السامع العربي يفهم المعنى المقصود على الأثر إذا سمع واصفاً يصف حسناء بأنها بدر على غصن فوق كثيب ، لأن ذهن السامع العربي تعود النفاذ في الصورة الحسية إلى دلالتها النفسية ، فهو لا يرسم في ذهنه قمراً وغصن شجرة وكومة من الرمل حين يسمع تلك العبارة ، ولكنه يفهم من البدر إشراق الوجه ، ومن الغصن نضرة الشباب ولين الأعطاف ، ومن الكثيب فراهة الجسم ودلالتها على الصحة وتناسب الأعضاء . [1]

ولكن ماذا يفهم القراء أو بعض النقاد المحدثين من هذا المثال الذي مثل به أهل البلاغة ثم مثل به العقاد من بعدهم ، ويمثل به في جامعات العلم ومعاهده ومدارسه ، إن فهمهم يختلف عن فهم السابقين لمثل هذه الأمثلة .

يقول العقاد وماذا يفهم القراء من قمر على غصن على كثيب . ... إنها خليط أغرب في رأيهم من خليط الرسوم التي عرفت عندهم بالكريكاتور ..... ، وهكذا ينظرون إلى القمر في لغة الفلك ، والغصن في لغة النبات ، والرمل في لغة طبقات الأرض بدلاً من نظرتهم كما ينظر العربي إلى ذلك التشبيه فلا يرى فيه غير إشراق على اعتدال على فراهة يتحرك بها قوام رشيق . [2]

---

(١) اللغة الشاعرة ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ . بتصرف .

(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . ص ٦ .

واستخلاص المعاني المجازية من أعمال المبدعين ميزة يتميز بها الناطقون بالعربية ، ويحار في ذلك أبناء اللغات الأخرى . يقول العقاد :

إن سهولة استخلاص المجاز اللغوي من الألفاظ المحسوسة هي السليقة الشاعرة التي يحار فيها أبناء اللغات المحرومة من هذه الموهبة ، فيختلط الأمر على نقادهم ويحارون كيف يوفقون بين الصور التي تنقلها إليهم الألفاظ المسموعة وتبقى في أذهانهم وأخيلتهم لاصقة بأجسامها المنظورة أو الملموسة بلا فكاك من قيود المعجمات .[1]

وأهل البلاغة من أشهر ما يمثلون به للاستعارة في وصف الرجل بالشجاعة قولهم : رأيت أسداً في الحمام ، والعقاد يذكر هذا المثال ليستدل من خلاله بما ينقدح في ذهن السامع العربي عندما يسمعه .

إن السامع العربي يسمع التمثيل المشهور في قول القائل : « رأيت أسداً في الحمام » فلا تتمثل له غير صورة البطل الشجاع كما يكون الإنسان المتصف بالبطولة والشجاعة .[2]

ولقد اكتفيت ببعض الأمثلة التي أوردها العقاد لإثبات هذه الحقيقة البالغة الأهمية لا سيما في هذا الوقت الذي كثرت فيه معاول الهدم المأجورة ، وقل فيه الولاء وحسن الانتماء ، ، وبعد هذا الإسهاب المحمود والمطلوب يخرج بالنتيجة التالية

وبهذه السليقة الشاعرة تتصل المفردات اللغوية بأشكالها المحسوسة أو تنفصل عنها ولا تبقى لها غير معانيها المجازية ، لأنها مفردات في لغة شاعرة يعمل فيها الخيال والذوق كما تعمل فيها الأبصار والأسماع .[3]

وفي موضع آخر يثبت العقاد بالاستعارة نماء اللغة وغزارتها واتساع الاستعمال الذي يجمع بين الوازع اللغوي وغيره كما أسلفت .

---

(١) اللغة الشاعرة ص ٢١ .

(٢) اللغة الشاعرة ص ٢١ ، ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وهي الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير في التعبير ، وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات .[1]

وذكر العقاد لوصف الربيع واستشهاده بما قاله القدامى من شعر في هذا الغرض واشتمال تلك الأشعار على العديد من الاستعارات وإبداء إعجابه وثناءه العاطر لأكبر دليل على رضاه وإعجابه بالاستعارات الراقية المعبرة عن المعنى والمجسدة له دون ما إسراف أو تكلف .[2]

لقد كان العقاد كلفاً بشعر ابن الرومي ومتعمقاً في قراءته ودراسته، ويشيد بحبه للطبيعة والذي بدا واضحاً في جل ما أبدعه ، « وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح محاسنها نفساً تصبي الناظر إليها وتتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة :

فهي في زينة البغي ولكن ... هي في عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذي يقتضيه ذلك الشعور ويمليه ذلك التصور ، فيشف وصفه لها عن شغف الحي بالحي وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض خداً أضرع من دهشة الفراق ...[3]

---

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٨٩ .

(٢) انظر ساعات بين الكتب ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٣) ابن الرومي حياته من شعره ص ٢٥٠ .

ويوجه العقاد نقده لحافظ إبراهيم بسبب الزيادة التي زادها عند الترجمة ، وهذه الزيادة قد اشتملت على شيء من المجاز أثقل به كاهل الكتاب المترجم ، وليس هذا فحسب بل إن الاستعارة المستعملة غير مألوفة ولا معتادة في العبارة التي أضافها حافظ ، ثم ذكر العقاد المعتاد لدى العرب في الصورة التشبيهية لهذا المعنى .[1]

وهل الاستعارة لتوضيح المعنى فحسب ، وهل إذا كان المعنى واضحاً فتضمن الكلام لها فضول ، هذا ما نقله العقاد عن سعد وأقره عليه .

يقول العقاد : وكنا عنده يوماً - يعني سعد زغلول - وفي المجلس صروف وحافظ ومكرم فجاء ذكر كتاب حديث فقال الباشا : إن عيب صاحبه كثرة الاستعارة ، ثم قال : ما أظن صاحبه يريد ما يقول ، لأن الذهن الذي يملك معناه يملك عبارته بغير حاجة كثيرة إلى المجاز .

قلت يا باشا إن الاستعارة ما برحت دليل الفاقة في المال واللغة . فقال : هذا معنى حسن ولذلك أنت لا تستعير ، ومضى يقول : إنني أفهم الاستعارة للتوضيح والتمكين ، ولكني لا أفهم أن تكون هي قوام الكلام كله ، وكل استعارة عرفت وكثر استعمالها أصبحت كلاماً واضحاً وذهبت مذهب الأفكار المحدودة ، لأن الذهن يطلب الاستعارة ليستعين بها على التحديد فإذا وصل إلى التحديد كان في غنى عن الاستعارة والمجاز .[2]

وليس الغرض من الاستعارة التوضيح والتحديد فحسب ولكن من أهم أغراضها المبالغة لأنها مبنية على تناسي التشبيه وادعاء الحقيقة وهذا ما أكده علماء هذا الفن « فالاستعارة عندهم أفضل من المجاز وهي أخص منه إذ قصد المبالغة شرط في الاستعارة دون المجاز وموقعها في الأذواق السليمة أبلغ »[3] « ولا بد أن تكون

(١) انظر الفصول ص ٦٢ .

(٢) ساعات في الكتب ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) خزانة الأدب ج: ١ ص: ١٠٩ .

الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها .»[1] وقالوا أيضاً « الاستعارة هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه »[2]

وشيخ البلاغة يذكر غرضاً هو من أهم أغراض الاستعارة وقد غفل عنه العقاد وصاحبه حيث يقول « وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت رأيت أسدا كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده وذلك أنه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها وإذا صرحت بالتشبيه فقلت رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون ولم يكن من حديث الوجوب في شيء»[3]

وكون الاستعارة فيها العامي المبتذل والخاص الذي لا يستطيعه إلا الفحول أمر مشهور ومعروف لدى علماء البلاغة وليس من ابتكار أو اكتشاف المحدثين « فلا ترى أنك تجد في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا رأيت أسدا ووردت بحرا ولقيت بدرا والخاصي النادر الذي لا تجده إلا في كلام الفحول ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال كقوله الطويل

وسالت بأعناق المطي الأباطح

أراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة وكانت سرعة في لين وسلاسة كأنه كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلو الطبقة في هذه اللفظة بعينها قول الآخر البسيط :

(١) المرجع السابق ج: ١ ص: ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ج: ١ ص: ٢٥٤ .

(٣) دلائل الإعجاز ج: ١ ص: ٧٠ .

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

أراد أنه مطاع في الحي وأنهم يسرعون إلى نصرته وأنه لا يدعوهم لحرب أو نازل خطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول » [1]

وبهذا ثبت أن الاستعارة ليست للتوضيح فحسب ، وثبت أن التعبير بها أبلغ من الحقيقة ، وأضيف إلى ما سبق أن الاستعارة لو كانت للتوضيح فقط لاكتفينا عند وصفنا للرجل بالشجاعة أن نقول رأيت رجلاً شجاعاً ويغنينا هذا عن ، قولنا : رأيت أسداً ، ولم يقل أحد بهذا .

والشيخ عبد القاهر هنا يشير إلى قضية هامة وخطيرة وهي قضية المحاكاة ، وما يقابلها من الابتكار والتجديد فيقول ويشير إلى أن إرجاع المزية في محاكاة أو تقليد لاستعارة سابقة هو جهل ، إذن تقبيح التقليد واعتباره ضرب من الجهل أمر قد قرره علماء البلاغة القدامى وعلى رأسهم شيخ البلاغة ، قبل أن يقول به العقاد وأمثاله من أرباب النقد الحديث . حيث يقول :

وأمر آخر إذا تأمله الإنسان أنف من حكاية هذا القول فضلا عن اعتقاده وهو أن المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها لكان ينبغي أن لا تجب إلا بمثل الفرق بين الفاء وثم وإن وإذا وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضع لغوي فكانت لا تجب بالفصل وترك العطف بالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ما هو هيئة يحدثها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤم والمعنى الذي تقصد وكان ينبغي أن لا تجب المزية بما يبتدئه الشاعر والخطيب في كلامه من استعارة اللفظ لشيء لم يستعرله وأن لا تكون الفضيلة إلا في استعارة قد تعورفت في كلام العرب وكفى بذلك جهلاً . [2]

(١) دلائل الإعجاز ج : ١ ص: ٧١ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٩٣ .

الكناية

لم يتعرض العقاد للحديث عن الكناية كثيراً ، وإنما جاءت في معرض حديثه في المقارنة بين بيتين من الشعر قالهما البارودي أحدهما قاله وقت شبابه ، والآخر وقت كبره أما الأول فقوله :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

وأما الثاني فقوله :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

ويذكر العقاد أولاً ما ذكره الأستاذ محمد صبري ، من تفضيله البيت الثاني على البيت الأول حين قال : فانظر إلى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت في أول الأمر كالطائر الذي كسر أحد جناحيه فتعسر عليه النهوض حتى جاء الشاعر وبدل الشطر الثاني بشطر آخر يتلاءم مع الأول معنى و مبنى ، فإن قوله ملول من الأيام بعد قوله (ثم بدد شملهم) من أضعف التراكيب وأخسها ، بخلاف (أخو فتكات بالكرام) فإن هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقة اللتين بلغتا منتهاهما في آخر البيت حين فسر شاعرنا الكناية بقوله اسمه الدهر [1]

أما العقاد فيفضل البيت الأول على الثاني ، ويرى أن البيت الثاني قاله الشاعر وقت شبابه وهو مناسب كل المناسبة لتلك الفترة أما البيت الثاني فقد قاله الشاعر في آخر حياته فهو مناسب لتلك الفترة ،

يقول العقاد ولم أكن لأعرض لهذا الخلاف لولا أنني أردت أن أتخذ منه مثالاً للأسباب التي يفضل من أجلها بيت على بيت ، وأسلوبٌ على أسلوب ، والأمثال ... خير معين على توضيح الآراء ووضع المقاييس .

فنحن نرجح أولاً أن البيت الذي نشره المرصفي هو البيت كما هو البيت كما صاغه البارودي للمرة الأولى لأنه أشبه بالضجيج الذي كان مغرماً به في صباه وأقرب

(١) انظر ساعات بين الكتب ص ٢٤٣ .

إلى أن يروع القارئ بتهويله لا بمدلوله ، ثم عدل عنه إلى الصيغة التي نشرت في الديوان ، وهي أشبه برصانة السن وتجارب الشيخوخة التي طال بها عهد التأمل .

ونرى بعد أن البارودي يكون مخطئاً لو أنه قال أولاً : « ملول من الأيام شيمته الغدر » ثم عدل عنها إلى قوله « أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر » لأن الصيغة الأولى أصدق في وصف الأيام وأدل على سآمة الناظم وضجره من الحوادث ، وأقرب إلى التشخيص والتصوير من الصيغة الثانية .(١)

ويشير العقاد إلى ضياع لطافة الكناية مع الرواية الأولى ووجودها وحضورها مع الرواية الثانية حيث يقول « وأنت إذا سمعته – أي البيت في الرواية الأولى – يدهك بما يشغلك عن لطف الكناية فلا تعود تبالي أكان اسم صاحب هذه الفتكات الدهر أم غير الدهر ، ولذلك إذا سمعت « ملول من الأيام » انسرحت أمامك ساحة الحوادث فرأيت أطوارها طوراً بعد طور ....(٢)

ويمضي العقاد في إسهاب شديد يذكر المبررات الكثيرة التي ترجح تفضيله للبيت الأول على الثاني ثم يختم تلك المقارنة بقوله :

لا يخطر لك هذا كله حين تفضل أحد البيتين على الآخر ، ولكن الناس يستحسنون ، أو يستهجنون ثم يرجعون إلى التعليل والتفسير ، وفي هذا دليل آخر على أن التذوق هو تعليل موجز سريع ، وأنه قد يغني عن المنطق ولكن المنطق لا يغني عنه بحال .(٣)

وقد نقلت معظم ما قاله العقاد عن البيت الأول حتى أبرئ ساحة البلاغة القديمة مما نسب إليها ، أو مما نسب إلى العقاد من قول لم يقله .

---

(١) ساعات بين الكتب ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) ساعات بين الكتب ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

قال البعض هناك شعر ردئ كثير روجت له البلاغة ، أو روجت له آداب غير قليلة . كان العقاد ينتقد شواهد البلاغة انتقاداً عميقاً حين يتهم الشعر الردئ اتهاماً يلفت النظر ، وبعبارة أخرى إن طريقة الشعر الردئ هي طريقة لذع الحس وتمييع الشعور ، ومن الواضح أن هذا الوصف ينطبق على إحدى روايتي بيت البارودي (١)

ويذكر كاتب هذه السطور البيت الأول ويغفل البيت الثاني الذي أبدى العقاد إعجابه به وجعله مناسباً للفترة الزمنية التي قيل فيها من عمر الشاعر ، ثم إن العقاد رأى أن البيت الثاني كان يمثل فترة الصبا من عمر الشاعر .

ثم كيف كان العقاد ينتقض شواهد البلاغة انتقاداً عميقاً ؟ وكيف يقبل هذا التعميم والعقاد نفسه قد أشاد بكثير منها ؟ كما أثبت هذا البحث في أكثر من موضع ، وعندما توجه بالنقد فإنما توجه بالنقد للقليل منها ، ثم نقده لهذه الشواهد لم تكن ممثلة للقواعد البلاغية وإنما ممثلة لأصحابها من الشعراء الذين أخضعوا أنفسهم للقواعد وتخلوا عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، تكلفوا القاعدة من أجل التقليد والمحاكاة ، فالشاعر الذي ينقاد للقاعدة شعره مذموم والشاعر الذي تنقاد له القادة شعره محمود ، وهذا ما أجمع عليه الفقهاء من النقاد قديماً وحديثاً .

ويتحدث العقاد عن الرمز ويعتبره نوعاً من أنواع الكناية وذلك عند ما يوجه السؤال إليه عن قصيدة لإليا أبي ماضي هل هي من الرمز أم غيره ، فيقسم العقاد الأساليب التي هي من هذا النوع إلى ثلاثة :

أولها ، أسلوب الكناية بضرب الأمثال ، ومنه قصيدة أبي ماضي ، وليس هو المقصود عامة بالكناية الرمزية ، لأنه قد يأتي في الشعر الصريح ، وقد يصرح في الشاعر بأنه يمثل لأفكاره وتشبيهاته ،أو يفهم القارئ ذلك منه بغير حاجة إلى تصريح .

---

(١) اللغة والبلاغة والميلاد الجديد ص ٦٦ .

والأسلوب الثاني وهو المقصود بالأسلوب الرمزي يكون الشعر فيه ضرباً من الألغاز والكنايات يفهمه القارئ كما يفهم التورية إلى المعنى بالتلميح دون التصريح .

، .... أما الشعر الرمزي فهو نوع من الكناية بالعلامات التي يسمونها بالشفرة (أو الصفر) غاية الفرق بينه وبين الشفرة أن العلامات فيه كلمات وعبارات وليست حروفاً أو أرقاماً أو تلفيقات مختزلة من الألفاظ التي لا تجري على الألسنة .

والأسلوب الثالث هو أسلوب الأسرار .... [1]

وكون الرمز نوعاً من أنواع الكناية غير خاف بل هو معروف لدى جميع علماء البلاغة « قال السكاكي الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في كثرة الرماد وأشباهه ، فالمناسب أن تسمى تلويحا، لأن التلويح هو أن يشير إلى غيرك عن بعد وإلا فإن كان فيها نوع خفاء فالمناسب أن تسمى رمزا لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية قال:

رمزت إلي مخافة من بعلها من غير أن تبدي هناك كلامها

وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة كقول أبي تمام يصف إبلا :

أبين فما يزرن سوى كريم وحسبك أن يزرن أبا سعيد

فإنه في إفادة أن أبا سعيد كريم غير خاف وكقول البحتري :

أو ما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول

فإنه في إفادة أن آل طلحة ماجد ظاهر . » [2]

---

(١) مفتاح ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ج: ١ ص: ٣٠٩ .

البديع

البديع هو أحد علوم البلاغة الثلاث، وترتيبه العلم الثالث بعد علمي المعاني والبيان، كما هو في كتب المتأخرين ، وهذا العلم هو بوابة الطعن في البلاغة ، وذلك لحرص بعض المتأدبين عليه وإكثارهم منه بحاجة أو بغير حاجة ،

والحق أن فنون هذا العلم إن جاءت بغير تكلف أو تصنع ، وكان لها أثرها الواضح في قبول المعنى فهي من صميم البلاغة ولا غنى عنها ، أما إذا كان الدافع لها هو تقليد الغير ومحاكاته ، بعد تكلف وتصنع فهي مذمومة ممقوتة ، ويعرف ذلك أصحاب الأذواق العالية الرفيعة .

وهذا الذي ذكرته ويذكره النقاد المحدثون ليس بجديد فقد قال به علماء هذا الفن عندما وضعوا الشروط لاستحسان الكلام الذي يشتمل على فنون هذا العلم ،

قال الخطيب : وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع على أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء وأن يوقع السامع طلبه في خبط عشواء . [1]

وصاحب خزانة الأدب يذكر بيتاً من الشعر من بديعيته يشتمل على العديد من مباحث هذا الفن ، ونراه يستحسنه ويعلل لذلك الاستحسان بأنه لا تكلف فيه . حيث يقول :

وبيت بديعيتي

وما أروني التفاتا عند نفرقهم وأنت يا ظبي أدري بالتفاقم

فهذا البيت فيه التورية بتسمية النوع ، وقد برزت في أحسن قوالبها ، ومراعاة النظير في الملائمة بين الالتفات والظبي ، والنفرة والانسجام الذي أخذ بمجامع القلوب رقة ، والتمكين الذي ما تمكنت قافية باستقرارها في بيت كتمكين قافيته ،

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ج: ١ ص: ٣٦٨ .

والسهولة التي عدها التيفاشي في باب الظرافة ، وناهيك بظرافة هذا البيت، والتوشيح وهو الذي يكون معنى أول الكلام دالا على آخره ، ورد العجز على الصدر، والالتفات الذي هو المقصود دون غيره من الأنواع ، فقد اشتمل هذا البيت على ثمانية أنواع من البديع مع عدم التكلف والله تعالى أعلم .[1]

ويذكر العقاد رأي سعد زغلول في المحسنات من كونها كالحلى فإن زادت عن حدها فهي مفسدة وإن كانت تتسم بالاعتدال فهي مصلحة وصالحة .

يقول العقاد : وجاء ذكر المحسنات والشغف بها فقال – رحمه الله – : إن المحسنات حلية والشأن فيها كالشأن في كل حلية ، ينبغي أن تكون في الكتابة بمقدار ، وإلا صرفت الفكر عنها وعن الكتابة ، وعندي أن المقال الذي كله محسنات كالحلة التي كلها قصب لا تصلح للبس ولا للزينة .[2]

والعقاد يصف حال الشعر في مصر منذ عشرين سنة ويوضح ما أصابه من ركاكة وضعف بسبب حرص اصحابه على الزخرف والزينة وأثقال كاهله بالمحسنات وتكلفها وتصنعها ، ومحاكاة الغير فيها .

يقول العقاد : وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملؤه بالتورية والكناية والجناس والترصيع ، وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليذيلوا بها كتب البيان والبديع ، وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس ، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها كما يتبارى الأطفال في جمع الحصى الملون وتنضيده ، وكان الشاعر منهم يلاحق البيت بالبيت ، أو يشبك المصراع بالمصراع ، ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب أنه يخل بروح الشعر ، لأنه يلتزم حرف الروي في كل بيت وعروض البحر في كل قصيدة ... ... – وكل هذا ظهر – بعد تناول الناس أشعار الفحول الأوائل ،

---

(١) خزانة الأدب ج: ١ ص: ١٣٧ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ٢٧٢ .

وكتب الأساتذة الفطاحل لأنها نتيجة قريبة لابد منها على إثر ذيوع الأدب القديم ومضاهاته بهذا الأدب المعتل السقيم ، ، وهي أقل ما ينتظر من أدبائنا عامة ، والذين لم يشربوا في صغرهم الشغف بتلك المحسنات خاصة ...[1]

وفي موضع آخر يذكر المحسنات وذلك في معرض رده على النقاد الذين يزعمون أن المحسنات خاصة باللغة العربية وحكر عليها بل هي قدر مشاع بين اللغات ، ويقرر أن المحسنات تحمد إذا جاءت بغير تكلف أو تصنع .

يقول العقاد : وبعضهم يأخذون على ما يسمونه بالأسلوب الإفرنجي قلة المحسنات البديعية والاستعارات المجازية يظنونها من مزايا بلاغة العرب ، وهي في الحقيقة قسط مشاع بين جميع اللغات إذا هي صدرت عن الطبع المرسل ولوحظ فيها الاعتدال والذوق السليم .[2]

والعقاد يتناقض مع نفسه كيف أنه قد قرر أن المجاز وسهولة معرفته والوقوف عليه من خصائص اللغة العربية ثم يقرر هنا أن ذلك أمر مشاع ، وسأضطر إلى ذكر جانب مما ذكرته حتى يتضح هذا التناقض ،

يقول العقاد : « ومن خصائص هذه اللغة في تعبيراتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العلمية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين . ....[3] إن سهولة استخلاص المجاز اللغوي من الألفاظ المحسوسة هي السليقة الشاعرة التي يحار لها أبناء اللغات المحرومة من هذه المزية ، فيختلط الأمر على نقادهم ويحارون كيف يوفقون بين الصور التي تنقلها إليهم الألفاظ »...[4]

---

(١) الفصول ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) مراجعات في الآداب والفنون ص ٨٦ .

(٣) اللغة الشاعرة ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ . بتصرف .

(٤) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، ص ٦ .

ويمضي العقاد في إكمال ما يريد أن يثبته فيقول « فما كان العرب أكثر مجازاً واستعارة من أمم الغرب ولا عهد في بلغائهم المطبوعين الولع بهذه المحسنات التي أفرط فيها المقلدون وطلاب البلاغة على جهل بأسرارها ، وعجز عن التقليد الصحيح فيها ، ولقد عاب النقاد والنقات الإكثار من المحسنات الصناعية وعدوها بدعة مستحدثة على اللغة العربية واستحبوا فيها أن تكون في الكلام كالخيلان في الوجنتان أو كالحلية في الثياب ، وأن تجيء عفواً بلا كلفة ، أو تقصد قصداً ، ولكن لتوضيح المعنى وتجميله ، وليس للعرض على الأنظار ، والمباهاة بالاحتيال والاقتدار . »[1]

ومن الأسباب التي ذكرها العقاد لتخلف الأدب المصري شدة الإعجاب والتأثر بالأدب الفرنسي الذي يهتم بالطلاوة والسطحية ، والمثقفون ينكبون على دراسته قبل دراستهم للآداب الأخرى مثل الأدب الإنجليزي الذي لا يعول كثيراً على الطلاوة . والسطحية ، وإنما جل اهتمامه بالكيف والمضمون والصدق والبساطة والوضوح .[2]

ولماذا الأدب الإنجليزي وفي المرتبة الأولى ، ؟ ألا يستحق الجيد من الآداب العربية أن تكون البداية بها وبعد استيعابها وهضمها ودراستها دراسة جيدة لأنها تنسجم مع الطبيعة والعادات والتقاليد ، يأتي الجيد من بقية الآداب . والعقاد له ثناء عاطر على كثير من الآداب العربية في معظم مؤلفاته ومقالاته .

ويؤكد في موضع آخر أن السبب الذي جعل النقاد يحكمون على الأدب المصري بالتدهور والانحطاط هو أن طائفة من الشباب الذين درسوا في بلاد الغرب كانوا مولعين بالمحسنات الشبيهة بالسحر والداعية للتندر .[3]

---

(١) مراجعات في الآداب والفنون ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) انظر ساعات ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٥ .

والعقاد يحكم على شعر ابن زيدون في بعض أغراضه وخاصة فيما ذكر فيه حبه لولادة بالتكلف والصنعة ومن مظاهر ذلك الإكثار من الطباق والمقابلة .

والأصح عندنا أن يقال إن النثر في نظمه أكثر من الشعر ، وإن تذوقه كان أقل من ظرفه ، وكان ذكاؤه أظهر من عاطفته ، وإن الصنعة أبين في شعره من الطبع ألا ترى أنه في آخر قصائده التي نسب فيها بولادة لم ينس الطباق والمقابلة بين ابتلال الجوانح وجفاف المآقي في قوله :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

أو بين سواد الأيام وبياض الليالي في قوله :

حالت لبعدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

أو بين السدرة والكوثر ، وبين الزقوم والغسلين في قوله :

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها ... والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

وقد لهج ابن زيدون بولادة أيما لهج ، وأربت قصائده على قصائد المجنون في ليلاه ، ولكنك يندر أن تعثر بينها ببيت غلب فيه عشق الرجل للمرأة على صحبة الوزير لبنت الأمير ، وإخاء الأديب للأديبة ..[1]

العقاد يشير إلى أن حافظاً خالف الأصل بالزيادة علية في بعض المواقف والذي حمله على ذلك حرصه على حسن المقابلة عند ترجمته لكتاب البؤساء .[2]

وكتاب البؤساء هذا الذي ترجمه حافظ يعتبره العقاد مثالاً للبلاغة الغثة رغم اشتماله على كثير من الفوائد يقول العقاد « وقد يقال من ناحية أخرى إن حافظاً أخطأ خطأ مضاعفاً لأنه في هذا الوقت الذي أخذت فيه العقول تتفتح على الصواب وتفطن إلى فضائل الآداب الصحيحة وأصول النقد الحديث ، جاءنا بكتاب يضلل النشء ويدس في روعهم أن ما يعجب به المعجبون من آداب الغرب لا يختلف في

---

(١) الفصول ص ٨٨ .

(٢) الفصول ص ٦٣ .

روحه ومنهجه عما يعجبنا نحن من الآداب العتيقة ، وصنوف البلاغة الغنة الممجوجة فيختلط عليهم الأمر ولا يتبين لهم فاصل ظاهر المعالم بين الصدق والتمويه والأصالة والتقليد – قد يقال هذا وقد يقال ذاك ولا يخلو القولان من قسط من الصواب ... »[1]

والعقاد يشيد كثيراً بالجهد الذي بذلة علماء البلاغة في تبويب الأبواب وتقسيم الأقسام ، وخاصة الجناس يقول العقاد وفاقهم – الضمير يعود على المحدثين – أن الناقد الأول الذي لحظ الجناس في اللفظ والمعنى ، وقسم أقسامه وميز بين فروقه ، وسمى كل قسم من أقسامه باسمه ، وكل فرق من فروقه بمزيته ، لم يفعل ذلك إلا بعد أن تيسر له أن يطلع على مئات من القصائد ، ومن العبارات المنثورة ، وأن يستخدم فهمه وذوقه في ملاحظتها ، والمقابلة بينها ، وفي تبويبها ، وترتيب أبوابها ، واختيار الأسماء التي تدل أحسن الدلالة على معانيها ، ووجوه المشابهة أو المخالفة بينها .[2]

ويؤكد أن هؤلاء لو أنهم أرادوا أن يمحوا هذا التراث بتقسيماته ومسمياته وأرادوا أن له مسميا وتقسيمات جديدة لأصابهم العجز ، عند ذلك يعرفون أقدار أنفسهم . يقول العقاد « وأن أحداً منهم لو أراد أن يعيد هذه العملية عوداً على بدء ، وأن يضع لها – من جديد – قواعد غير القواعد ، وأسماء غير الأسماء ، لخرج من ذلك على التحقيق بنتيجة لا شك فيها ، وهي أن يعرف قدر نفسه ، وأن يعرف الأقدار التي تحدثه النفس أن يستطيل عليها بحسن الفهم وحسن التوجيه . »[3]

وعبارة العقاد في نقده للنقاد المحدثين الذين يعدون السجع عياً دائماً هي عبارة صريحة وواضحة في دحض ما زعموه أو ذهبوا إليه ، « وفي فنون الكتابة يحسب النقاد « من الموديل الأخير » أن الكلام المسجوع معيب حيثما كان ، وكيفما كان ،

(١) الفصول ص ٦١ .

(٢) يوميات ص ٣٦٣ .

(٣) يوميات ص ٣٦٣ .

ولأي غرض كان ، وقد يمضي الناقد من هؤلاء وراء ذلك خطوة في البيان والتصرف فيقول لك إنه معيب لأنه تكلف ... »[1]

واعتبر العقاد إنكار السجع من أوهام المجددين المقلدين « ومن الواجب أن نصحح هنا أوهاماً عارضة تغلب على جماعة المجددين المقلدين الذين يستكرون أسلوباً من الأساليب على السماع ، ولا يسألون أنفسهم : لماذا استكروه ؟

فليس السجع منتقداً لذاته ، وإلا كان نظم الشعر أولى بالانتقاد . وإنما يعاب السجع إذا اضطر الكاتب إلى التضحية بالمعنى وبالتعبير السليم في سبيل الأسجاع الملفقة والفواصل المغتصبة .

أما إذا استقام به المعنى وازداد به تأثيره وانتباه الذهن إليه فهو واجب مفضل على الكلام المرسل ، وميزان الحكم في هذا الأسلوب أن نحاول استبدال الكلمات المرسلة بالكلمات المسجوعة ثم تنظر إلى الفرق بين أثر الأسلوبين ، فإذا ضعف الكلام بعد قوة ، وسكن بعد حركة فالتجديد هو اختيار السجع وإهمال الاسترسال ، ولا مسوغ لإيثار الكلام المرسل في هذه الحالة إلا الشعور بالعجز عن سواه .. »[2]

والعقاد في كتاباته كان يفضل أسلوب السجع وذلك في موضوعات التهكم والدعابة أما الموضوعات الفكرية فيفضل فيها الكلام المرسل ويعلل لذلك حيث يقول :

فالواقع أنني أختار السجع في موضوعات التهكم والدعابة كما اختاره في الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية ، فإن السجع ينبه الذهن إلى المعاني في هذه الأغراض ويزيدها جلاء ، وتوكيداً ، كأنه اللحن الذي يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذي يسمع بغير تلحين .

(١) يوميات ص ٣٦٤ .

(٢) يوميات ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

ولكنني اتجنب السجع في المباحث الفكرية لأنه على عكس ذلك يشغل الذهن بانتظار القافية ونهاية الفاصلة فيصرفه عن متابعة الفكرة والمضي مع سياق العبارة المتصلة بين المقدمات ونتائجها .(١)

ولست مع العقاد في كون السجع يشغل العقل في الأمور الفكرية ، فعندما تصاغ الفكرة بأسلوب جذاب محبب إلى النفس فإن هذا أدعى للاستماع والقبول ، والقرآن الكريم في أهم القضايا التي تحتاج إلى عمق التفكير يحرص على انسجام الفواصل وتآخيها فمثلاً في مقام مخاطبة النبي – صلى الله عليه وسلم – لحثه على مواصلة الإنذار والتحلي بالصبر نرى النظم الكريم في غاية الانسجام قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) (المدثر: ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ ، ٧)

وفي مقام الإنذار والتخويف وشدة الهول والكرب قال تعالى (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ) (الحاقة: ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢)

فليس المقام في الآيات الكريمات مقام دعابة أو تهكم وناهيك عن الأمثلة الكثيرة التي ذخر الكتاب العزيز بها وهي في أمس الحاجة إلى عمق التفكير ، وغير ذلك مما ذخرت به السنة المطهرة والجيد البليغ من كلام المبدعين في القديم والحديث ، وهي تشتمل على الفواصل والأسجاع التي تشد الانتباه وتحرك الفكر وتجذب السمع .

والعقاد يصحح المفهوم الخاطئ لدى المحدثين عن المبالغة ، وغرضه بهذا أن يزيل اللبس ، حيث يقول « كثير من النقاد المعاصرين يقيسون المبالغة بمعيار القناطير والأشبار ، فيحكمون بالمبالغة على أوصاف شعرية لا مبالغة فيها على الإطلاق ...

إذا قال الشاعر إن ممدوحه كالجبل الأشم ، وقاراً ومنعة وهيبة في الأنظار قالوا : تلك مبالغة محققة ، لأن الجبل يزن ألوف الأطنان ... لكنه خطأ من النقاد

(١) يوميات ص ٣٥٩ .

وليس الخطأ فيه من الشعراء . لأن المقارنة بين الجبل الأشم ، والإنسان الوقور المهيب ينبغي أن تقاس بالأثر النفساني في وجدان الناظر إليهما ، ولا يصح أن تقاس بالمقاييس الحسية ، فإننا إذا نظرنا إلى هيبة الجبل وهيبة البطل العظيم لم نشعر بالمبالغة ، ولم نضع هذا ولا ذاك في ميزان الفنان لنعلم صدق الشاعر والفنان ، وربما كانت مبالغة الشاعر هنا معكوسة إذا كانت هيبة الناظرين العظماء الذين يعرفون أقدارهم أكبر وأعمق من هيبتهم لمناظر الجبال.(١)

ولكن هل هذا المعنى الذي أراده العقاد يتحقق قبل استحضار صورة الجبل في ضخامته ، ولذا ينكر العقاد في كل كتاباته كون التشبيه للمبالغة ويثبت دائما أنه للتوضيح والاستعارة كذلك ، وهو بهذا يخالف كلام أئمة هذا الفن .

يقول ابن الأثير فالتشبيه إذا يجمع صفات ثلاثة هي المبالغة والبيان والإيجاز كما أريتك إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب وهو مقتل من مقاتل البلاغة وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه وتعسر الإجادة فيه وقلما أكثر منه أحد إلا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع من أدباء مصر فإنهما أكثرا من ذلك لا سيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذي لا يثبت على محك الصواب فعليك أن تتوقى ما أشرت إليه .(٢)

ويمضي في ضرب الأمثلة على ما يسميه النقاد مبالغة والعقاد ينفي عنها ذلك « وقد يقول الشاعر حين يصف الحزن أن النهار قد أظلم في عيني الحزين ، وأن الشمس قد انطفأت أمام بصره ، فيقول الناقد إنها مبالغة ، ولا مبالغة فيها من ناحية الشعور الصادق ، إذا كانت وحشة الليل المظلم أهون من وحشة النفس الحزينة في وضح النهار .(٣)

(١) يوميات ص ٣٥٧ .

(٢) المثل السائر ج : ١ ص : ٣ .

(٣) يوميات ص ٣٧٥ .

وليست المبالغة مذمومة في كل صورها كما يعتقد العقاد وكما فهمت من كلامه ، وإنما منها ما هو مذموم ومنها م هو ممدوح يقول الخطيب « ومنه المبالغة المقبولة والمبالغة أن يدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف وتنحصر في التبليغ والإغراق والغلو لأن المدعي للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنا في نفسه أو لا ، الثاني الغلو والأول إما أن يكون ممكنا في العادة أيضا أو لا ، الأول التبليغ والثاني الإغراق أما التبليغ فكقول امرىء القيس :

فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

وصف هذا الفرس بأنه أدرك ثورا وبقرة وحشيين في مضمار واحد ولم يعرق وذلك غير ممتنع عقلا ولا عادة

ومثله قول أبي الطيب :

وأصرع أي الوحش قفيته به وأنزل عنه مثله حين أركب

وأما الإغراق فكقول الآخر :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

فإنه ادعى أن جاره لا يميل عنه إلى جهة إلا وهو يتبعه الكرامة ، وهذا ممتنع عادة وإن كان غير ممتنع عقلا وهما مقبولان وأما الغلو فكقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

والمقبول منه أصناف أحدها ما أدخل عليه ما يقربه إلى الصحة نحو لفظة يكاد في قوله تعالى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) وفي قول الشاعر يصف فرسا

ويكاد يخرج سرعة عن ظله لو كان يرغب في فراق رفيق

والثاني ما تضمن نوعا حسنا من التخييل كقول أبي الطيب :

عقدت سنابكها عليها عثيرا لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وقد جمع القاضي الأرجاني بينهما في قوله يصف الليل بالطول

يخيل لي أن سمر الشهب في الدجى

وشدت بأهدابي إليهن أجفاني

والثالث ما أخرج مخرج الهزل والخلاعة كقول الآخر

أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غدا إن ذا من العجب [1]

وإظلام النهار في عيني الحزين ، وانطفاء الشمس أمام بصره أعتبره من المبالغة المحمودة على ضوء ما ذكره الخطيب ، وإذا لم تسم مثل هذه الأساليب مبالغة محمودة فماذا تسمى ؟ وما الغرض منها ؟، وما الفرق بينها وبين إثبات مثل هذه الأوصاف بطريقة عادية خالية من قوة التصوير؟ .

ويمضي في ذكر الأمثلة التي لا يعتبرها من باب المبالغة فيقول « وإنما المبالغة التي تكاد أن تكون هزلاً هي اختلاف المعاني الوهمية لتمثل الحقيقة كما قال الشاعر محمد إمام العبد – وهو أسود الجلد يرثي الأستاذ الإمام محمد عبده : « لبست سوادي فيك من قبل مولدي » ... فإن سواد الجلد لا يمثل سواد الحداد على أي معنى من معانيه ولو صح قول الشاعر لكانت حياته كلها حداداً على الأستاذ الإمام قبل أن يموت ، ولما كان له فضل يسير الشاعر ويستحق من أجله أن يحزن عليه . » [2]

والتعبير عن طول الحزن كل الوقت ما مضى من الزمان وما هو آت دليل على الملازمة وعدم الانقطاع ، وإن كان البعض يعتبرون مثل هذه التعبيرات التي تشتمل على الغلو المستحيل مثل قول أبي نواس السابق :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

ويكرر العقاد ما قاله ولكن أفهم من هذا التكرار أنه يرد على المحدثين الذين لا يفهمون المبالغة كما ينبغي ويجعل عدم فهمهم للمبالغة يضاهي عدم فهمهم للتقليد بل هو أندر .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ج: ١ ص: ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٢) يوميات ص ٣٧٦ .

وأندر من فهم معنى التقليد فهم معنى المبالغة التي ينعتونها على الأقدمين من المتكرين والمقلدين ، فأكثرهم لا يزالون يحسبون أن المبالغة شيء يقاس بمقاييس الأحجام والألفاظ ، وينكرون ما ينكرون منها على أساس هذا الخطأ الملموس . (١)

ويقول العقاد وإذا قال الشاعر القديم في وصف الكريم إنه أعظم من البحر الخضم ، فالناقد الغافل عن معنى التشبيه سريع إلى قياس البحر الخضم بالأميال وقياس الرجل الكريم بالأشبار .. ليفقد المبالغة « الهائلة » في مطابقة الأشبار للأميال ، ولو أنه نظر إلى أثر العطاء من الكريم في شعور من يحسن إليه لكانت المبالغة أقرب إلى جانب الحجم الصغير . (٢)

ولو نظرنا إلى الحجم الصغير فكيف تتحقق المبالغة كغرض من أهم أغراض التشبيه ؟، وكيف يكون وجه الشبه أوضح في المشبه به من المشبه ؟.

والعقاد يذكر أن رشاقة الحركة هي المقصودة بمشابهة الغزال وليست دقة الساق ولا مشاكلة الرأس والشفتين ، فإنها أقبح ما يرى في الإنسان على صفة الحيوان . (٣)

وهل كل مشبه لابد أن يكون متفقاً مع المشبه به في كل الصفات ؟ الجواب : لا . فقولهم مثلاً : فلان أسد يفهم منه كل مخاطب مهما تدنت ثقافته أن الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به هي الشجاعة ، ولا يفهم الشكل ولا الحجم ولا اللون ولا المخالب ولا الافتراس ، ولا يقول قائل إن صفة مقدارها في الرجل الشجاع مثل مقدارها في الأسد ولكن هي في الأسد أقوى وأوضح ، وإلا فما فائدة التشبيه ، فما قاله العقاد في الفقرة السابقة لا جديد فيه بل هو ما أجمع عليه كل علماء البلاغة .

---

(١) يوميات ص ٣٦٤ .

(٢) يوميات ص ٣٦٦ .

(٣) يوميات ص ٣٦٦ .

ويقول العقاد : ويكذب الشاعر المفجوع كذباً واضحاً إذا قال في وصف الفجيعة : إنها زلزلت الأرض ، وكسفت الشمس ، وضيقت منافذ الهواء ، لأن شيئاً من ذلك لم يحصل في العالم المحسوس ، ولكننا ننظر إلى الضمير الواجم ، والقلب المضطرب ، والعين التي تعرض عن كل ما تراه فلا ترى أثراً أشبه بأثر الزلزال ، وأثر الكسوف من وصف تلك الفجيعة . (١)

نفس هذا الكلام يحمل نفس المعنى الذي أشار إليه علماء البلاغة من كون الاستعارة تفارق الكذب ، قال الخطيب « وإذ قد عرفت معنى الاستعارة وأنها مجاز لغوي فاعلم أن الاستعارة تفارق الكذب من وجهين بناء الدعوى فيها على التأويل ونصب القرينة على أن المراد بها خلاف ظاهرها فإن الكاذب يتبرأ من التأويل ولا ينصب دليلا خلاف زعمه » (٢)

---

(١) يوميات ص ٣٦٦ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ج: ١ ص: ٢٦٩ .

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبه الاستعانة ومنه العون وعليه التكلان

وبعد

فهذه رحلة شيقة ممتعة عشت فيها مع عملاق من عمالقة الأدب في العصر الحديث وفي جانب يسير من جوانب المعرفة المتعددة لديه وهو جانب الدفاع عن لغة الضاد والذود عن علومها بكل ما أتيه من علوم وما حصله من معارف ، وخاصة علوم البلاغة الأصيلة ، والتي لقيت من الضيم والحيف في هذا العصر ما لم يلقه علم آخر .

وأرجو أن يكون هذا البحث قد حقق الغاية المرجوة منه وهي إثبات أن العقاد غيور على لغة القرآن وأنه عمل جاهداً على بيان علو مكانتها وارتفاع منزلتها .

وأن العقاد أظهر ولاءه وحبه الشديد لعلوم البلاغة الثلاثة البيان والمعاني والبديع ، وأبدى إعجابه الشديد بمن صنفوا في هذه العلوم ، وتقدير الجهود التي بذلت من جانبهم في قراءة النتاج الأدبي ودراسته دراسة متأنية متعمقة يصحبها الذوق العالي الرفيع الناقد والمقارن والمميز ، دون تعصب أو ميل أو هوى.

وأرجو كذلك أن يكون هذا البحث قد صحح المفاهيم الخاطئة حول كتابات العقاد عن البلاغة العربية ، وأنه لم يكن معول هدم كما زعم البعض ذلك ، وأن كل ما ورد عنه في كتاباته هو موجه إلى المبدعين الذين تكلفوا النظم تبعاً للقاعدة ، ولم تأت الأسرار البلاغية طواعية ، وهذه الأمور يحسها و يشعر بها الناقد الحصيف المتمرس لأساليب العرب في نظمهم ونثرهم.

وبينت الأسباب التي أدت إلى الظلم البين الذي وقع على العقاد ، ولو كان العقاد حياً لتكفل بالرد عليهم وكشف مزاعمهم ، وكثير من مشاهير الكتاب قديما وحديثاً وقع عليهم من الظلم مثل ما وقع على العقاد وأكثر وكل ذلك يحتاج إلى دراسات تلو دراسات تنصف هؤلاء وتصحح المفاهيم الخاطئة حول ما صنفوه .

ولله الحمد أولا وآخرا على ما أفاض علينا من نعمه وإياه نسأل الصفح الجميل من الاشتغال بما لا يقرب إليه وصلواته على أشرف الخلق وأكملهم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين ورضي الله تعالى عن التابعين وتابعيهم ومن تبعهم وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

المصادر والمراجع

١- الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني : دار إحياء العلوم: بيروت: ١٩٩٨ الطبعة : الرابعة .

٢ - أدب الكاتب : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري ،المتوفى: ٣٧٦: المكتبة التجارية : مصر: ١٩٦٣ الطبعة : الرابعة المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد .

٣ - ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت .

٤ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، عباس محمود العقاد ، نهضة مص ، ١٩٩٥ ، القاهرة .

٥- البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق ، د / محمد بركات حمدي أبو علي - طبعة أولى ٢٠٠٣ - دار وائل للنشر ، الأردن .

٦ - بين الكتب والناس . عباس محمود العقاد - دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة ١٩٨٥ .

٧ - تفسير أبي السعود : محمد بن محمد العمادي أبو السعود المتوفى: ٩٥١: دار إحياء التراث العربي: بيروت .

٨ - التجديد والحداثة بمعيار بياني ، جميل علوش .

٩- التصوير البياني د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة مصر ١٤١٣ - ١٩٩٣.

١٠ - حياة قلم - عباس محمود العقاد - دار المعارف - مصر -١٩٧٧ .

١١ - خزانة الأدب : تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري : ٨٣٧: دار ومكتبة الهلال: بيروت: ١٩٨٧ الطبعة : الأولى المحقق : عصام شعيتو .

١٢ - خلاصة اليومية والشذور ، عباس محمود العقاد ، نهضة مصر .

١٣ - دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني: ٤٧١: دار الكتاب العربي: بيروت: ١٩٩٥الطبعة : الأولى ،المحقق : د.محمد التنجي .

١٤ - الديوان . عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، الطبعة الرابعة ١٩٩٧ ، دار الشعب بمصر .

١٥ - رجال عرفتهم ، عباس محمود العقاد - نهضة مصر ١٩٩٢ .

١٦- رسائل الرافعي ، جمع وترتيب محمود أبو رية مطابع عيسى الحلبي القاهرة ١٩٥٠ م

١٧ - ساعات بين الكتب عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية بيروت .

١٨ - الشعر والشعراء ، ابن قتيبة) - ٢٧٦) ، تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف مصر ١٩٦٦

١٩ - شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، عباس محمود العقاد - نهضة مصر ١٩٧٧ .

٢٠ - الصناعتين . أبو هلال العسكري تحقيق: علي محمد البجاوي، و محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي مصر .

٢١ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : أحمد بن علي القلقشندي المتوفى: ٨٢١: دار الفكر: دمشق: ١٩٨٧ الطبعة الأولى : المحقق : د.يوسف علي طويل .

٢٢ - عيار الشعر . محمد أحمد بن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى- ١٩٨٢ م .

٢٣ - العقاد كما عرفته ، تأليف ، حسن علي الريس ، دار الإنسان ، القاهرة ١٩٧٥

٢٤ - فتح القدير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى: ١٢٥٠: دار الفكر: بيروت .

٢٥ - الفصول، عباس محمود العقاد دار المعارف المصرية ١٩٨٦ .

٢٦ - اللغة والبلاغة والميلاد الجديد . د/ مصطفى ناصف ، دار سعاد الصباح الكويت طبعة أولى ١٩٩٢

٢٧ - اللغة الشاعرة ، عباس محمود العقاد ، دار غريب للطباعة والنشر مصر ١٩٨٨ .

٢٨ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . الحسن بن بشر الآمدي - (٣٧٠) تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٢

٢٩- المثل السائر: أبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي: ٦٣٧ المكتبة العصرية: بيروت: ١٩٩٥ المحقق : محمد محي الدين عبد الحميد .

٣٠- مناهل العرفان ، محمد عبد العظيم الزرقاني - دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٦ طبعة أولى .

٣١- مراجعات في الآداب والفنون . عباس محمود العقاد دار الكتاب العربي بيروت طبعة أولى ١٩٦٦ .

٣٢ - نقد الشعر . قدامة بن جعفر ، تحقيق ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م

٣٣ - يوميات ، عباس محمود العقاد - دار المعارف بمصر طبعة ثانية ١٩٦٩